الانسان وقواه الخفية

كولن ولسن

ترجمة /اسامة عبد الرحمن

مقدمة

القضية هنا قضية ثورية ، ولا بد ان اقررها بوضوح في البداية فلقد آمن الانسان البدائي بأن العالم كان مليئا بقوى غير منظورة : الأورندا The Orenda قوة الروح عند الهنود الأمريكيين او الهواكا The Huaca عند اهل بيرو القدماء وقال عصر العقل أن تلك القوي لم يكن لها وجود قط الا في خيال الإنسان ، وانه ليس سوى العقل وحده ما يستطيع أن يطلع الانسان على حقيقة الكون وكانت المشكلة هي أن الإنسان قد اصبح قزما مفكرا ، وكان عالم العقليين مكانا يشيع فيه ضوء النهار ، حيث كان الضجر والتفاهة والعادية هي الحقائق النهائية والمطلقة ولكن المشكلة الرئيسية بالنسبة للكائنات الانسانية هي ميلها الى ان تقع في شرك : تفاهة الاشياء اليومية ، اذا ما استعرنا عبارة هايدجر في عالم هايدجر ، مارتن (١٨٨٩-١٩٧) أحد مؤسسي الفلسفة الوجودية الانية وتلميذ ومساعد ادموند هوسرل ، مؤسس المنهج الفينومينولوجي الظاهراتي الحديث اشتغل استنادا للفلسفة بجامعتي ماربورج وفريبورج حيث اعلن قبوله لافكار الحزب النازي وقد تأثر به الوجوديون الفرنسيون : سارتر ومارلو بونتي ، اساسا والمقولة المحورية لفلسفة هايدجر هي مقولته الزوال او التمحور الدائم التي قال انها مساوية لعواطف البشر الداخلية واعتبر الحالة النفسية ،مبدا اساسيا لتلك العواطف ، ووصفها بأنها شكل تلقائي وغير متطور من الوعي ونظر هايدجر الى القلق والخوف اشكالا اولية للشخصية الانسانية ويتكون من تلك الاشكال ، الوجود الذاتي للانسان ، الذي اسماه هايدجر : الكينونة في العالم وهذا هو السبب الذي يجعل قانون الاشكال الاولية قانونا للوجود او الكينونة ذاتها

ولكي يكشف الانسان دور معنى الكينونة فان عليه أن يتخلص من الأهداف العملية وان يكون واعيا بقابليته للفناء، وبفعله الشديد ومن خلال احساس الإنسان بانه يقف على الدوام وجها لوجه مع الموت فانه سيتمكن من ادراك أهمية واكتمال كل لحظة من الحياة ، فيتخلص من اوثان الوجود الاجتماعي من نوع الأهداف العملية والمثل العليا والتجريدات العلمية هم مشاغلهم الشخصية الخانق وفي كل مرة من مرات وقوعهم في هذا الشرك ، فانهم ينسون العالم الشاسع الهائل ذا المغزى الاكثر اتساعا الذي يترامي من حولهم ولما كان الإنسان بحاجة الى احساس بالمعني لكي ينفس عن طاقاته المخبوءة ، فان هذا النسيان يجذبه - او يدفعه الى اغوار عميقة من الانقباض والضجر ، وهو الاحساس بأن شيئا لا يستحق أن يبذل من اجله اي جهد

وبمعنى ما ، فان الهنود الأمريكيين واهل بيرو كانوا اقرب الى الحقيقة من الانسان الحديث ، ذلك لان حدسهم القوى غير المنظور جعلهم متفتحين لتلقي مظاهر وتجليات المعاني التي تحيط بنا من الممكن أن ننظر الى فاوست لجوته باعتبارها اعظم دراما رمزية ابدعها الغرب ، طالما انها دراما الانسان العقلي الذي يختنق في غرفة وعيه الشخدمي التي تعلوها الأتربة ، واقعا متخبطا في دائرة الضجر والعقم المفرغة التي تؤدي بدورها الى مزيد من الضجر والعقم ان اشتياق فاوست الى معرفة الغيب هو الرغبة الغريزية في الإيمان بالقوى غير المنظورة ، وبالمغزى الاكثر اتساعا ، الذي يستطيع أن يكسر تلك الدائرة فيضع نهايتها

ان ما يثير الاهتمام هو أن الإنسان الغربي قد طور العلم والفلسفة بسبب هذه الرغبة المتلهفة الخارقة الساعية إلى المغزى الاكثر اتساعا ولم يكن تفكيره العقلي هو ما خانه ، وانما كان عجزه عن التفكير بوضوح هو الخائن ، اى آن يفهم ان العقل الصحيح لا بد انه ان يستخلص من العالم زادا من المعنى اذا كان له أن يستمر في الحصول على نتيجة من المجهود الحيوي وكان الخطا القاتل هو فشل العلماء والعقليين في المحافظة على تفتيح عقولهم للاحساس بالهواكا ، اي بالقوى غير المنظورة لقد حاولوا أن يقيسوا الحياة بمسطرة طولهاست بوصات ، وان يزنوها بصنجات المطبخ ولم يكن هذا علما ، وانما كان فجاجة لا تزيد اكثر من درجة واحدة على فجاجة المتوحشين

يعيش الإنسان بأن ياكل المغزى كما ياكل الطفل الطعام وكلماازداد عمق احساسه بالدهشة ، كلما ازداد اتساع فضوله وتطلعه الى المعرفة والفهم، وازدادت قوة حيويته ، وازدادت قوة قبضته على وجوده الخاص

هناك طريقان يستطيع عليهما ان ينطلق ويمتد : الى الداخل ، والى الخارج انني اذا كنت في بلد اجنبى وانتابتني رغبة قوية في اكتشافه اكتشافا شاملا وعميقا ، وان ازور ابعد اماكنه ، فان هذا هو المثال النموذجي للامتداد نحو الخارج ولن يكون من غير الصحيح أن نقول ان حب الكتب والموسيقى والفن هر نموذج الرغبة في الامتداد نحو الداخل ولكنه ايس سوى نصف هذا النوع من الامتداد لان ما يحدث اذا ما اصبحت نجاة مفتون ببلد اجنبي هو ان اشعر بنفسي كما لو كنت عنكبوتا كامنا في مركز نسيجه انني اشعر بكل انواع المغزى التي تهتز على طول النسيج ، فاريد ان امسد اطرافي فأجتذبها جميعا ولكن نفس الشيء هو ما يحدث في حالات السكينة الداخلية العميقة حينذاك اشعر بمساحات داخلية شاسعة ، وبأنواع غريبة من المغزى في داخلى لا اعود كائنا انسانيا ضئيلا تافها من القرن العشرين ، واقعا في شرك حياته وشخصيته مرة اخرى اكون في مركز نسيج العنكبوت شاعرا باهتزازات المعني وفجأة اتبين في اعمق المعاني أن أولئك الهنود الأمريكيين واهالي بيرو كانوا على حق انني اصبح مثل شجرة ادركت فجأة أن جذورها تغور عميقا ، عميقا في باطن الأرض وفي هذه اللحظة الحاضرة من التطور ، تمضي جذوري الى عمق ابعد بكثير مما تمتد فروعي من فوقها - انها ابعد واعمق منها بألف ضعف

وما يسمى بالقوى السحرية ، انما هو جزء من هذا العالم الكامن الخفي قدرات الحاسة السادسة او البصيرة الثانية ، والرؤية المسبقة ، والتواصل عن بعد ، والتنبؤ وليست هذه القدرات هامة بالضرورة لتطورنا ان اكثر الحيوانات تمتلكها ،

وما كان لنا أن نسمح لها بان تغرق فتختفي وراء ستاز اهمال استخدامها لو انها كانت قدرات اساسية ولكن معرفة الانسان بجذوره بعالمه الداخلي ،هامة بالنسبة له بالفعل في هذه النقطة من تطوره ، لأنه وقع في شرك تخيله عن نفسه باعتباره قزما مفكرا لا بد له بشكل ما ان يعود الى معرفة انه بحق وعن مقدرة ، ساحر خارق القدرة ، واحد من تلك الشخصيات السحرية التي تستطيع أن ترسل صواعق البرت او تأمر الأرواح فتنقاد لها وقد كان الفنانون والشعراء العظام مدركين لهذا على الدوام ان الرسالة التي تحملها سيمفونيات بيتهوفن ، يمكن ان تلخص في عبارتين : ليس الانسان ضئيلا ، انما هو كسول الى حد معين لا تستطيع الحضارة ان تتقدم الى ابعد مما وصلت اليه حتى يسلم الناس بقوي الغيب غير المنظورة تسليما بديهيا على نفس مستوى تسليمهم بالطاقة الذرية ولست اعني بهذا انه ينبغي على العلماء أن ينفقوا أماسيهم أمام لوحة تحضير الارواح ، او انه ينبغي على كل جامعة أن تقيم قسما للعلوم الروحية على النمط الذي وضعه معهد الراين في مدينة ديوك وانما امني ان علينا أن نتعلم كيف نمتد نحو الداخل حتى نستطيع بشكل ما أن نعيد اقامة الاحساس بالهواكا ، حتى نصل الى اعادة خلق الاحساس بالقوى غير المنظورة التي كانت معروفة وعادية بالنسبة للانسان البدائي لا بد لهذه المهمة من أن تنجز بشكل ما هناك جوانب مما يدعى بفير الطبيعي ينبغي علينا أن نتعلم كيف نسلم بها دون نقاش ، وكيف نعيش معها بنفس البساطة التي عاش بها أسلافنا معها يقول بليك : آن مدركات الإنسان ليست مقيدة بأعضاء الادراك فهو يدرك اكثر مما تستطيع حواسه ان تكتشف رغم أن ما يدر كه يكون بالغ الدقة انه يعرف اشياء لم يكن قد تعلمها او علم عنها شيئا من خلال المدرسة او التجربة اليومية ، وفي بعض الأحيان يكون من المريح اكثر الا يعرف تلك الأشياء

ويحكي اوزبيرت سيتوپل حكاية غريبة عن قارئة كف :كان كل زملائي الضباط الذين يماثلونني سنا ، قد ذهبوا قبل شهرين او ثلاثة في هذا العام لرؤية قارئة كف شهيرة ، قيل عنها فيما اذكر ان مستر ونستون تشرشل اعتاد أن يستشيرها في بعض الأحيان وقد اعتاد اصدقائي على زيارتها بالطبع آملين أن يقال لهم ان قصص حبهم سوف تنجح ، ومتى سوف يتزوجون ، والاتجاه الذي سوف تتطور فيه حياة كل منهم العملية المقبلة ويحدث في كل مرة، أن العرافة ما تكاد تبدا في قراءة حظوظهم ومستقبلهم ، حتى تطوح بالأكف الممدودة اليها في انزعاج مفاجيء وهي تصيح : لا افهمها : انه نفس الشيء مرة أخرى فبعد شهرين او ثلاثة ، ينقطع خط الحياة ، ثم لا يمكنني ان اقرا شيئا وكانت هذه العبارات تبدو لكل شخص قابلته مجرد عذر ارتجلته المراة لكي تبرر فشلها: ولكن حينما حكى لي هذه القصة اربعة او خمسة أشخاص ، تساءلت عما كان يمكن أن تنذر أو تنبيء به وكانت هذه القصة تنبيء باندلاع الحرب العالمية الأولى ، وكانت تنبيء بموت الرفاق الضباط الذين كانت حظوظ الحياة في ايديهم تنقطع بعد ثلاثة شهور من استشارة قارئة الكف[ن المحتمل أن يكون عدد القراء الذين قد يصرفون الانظار عن هذه القصة باعتبارها من وحي الخيال او كذبة صريحة عددا ضئيلا جدا وقد يشعر عدد اكبر بانها تحتوي على قدر من الحقيقة ، ولكنها تعرضت لشيء من المبالغة اما غالبية الناس فقد يقبلونها على انها حقيقية بقدر ما وان كانت غريبة شاذة ولكنها ليست بالغة الأهمية ، وهم على الاقل ، لا يعتزمون التفكير فيها ونحن ميالون الى الركون الى هذه الاستجابة متى ما واجهنا الغريب الشاذ

: بأن ندفعه الى قسم مستقل ومغلق من العقل ، يحمل لافتة تقول الاستثناءات ، ثم نتركه للنسيان

وقد سمعت ان ابراهام لينكولن ، كانت تنتابه الأحلام والهواجس التي تنبئه بموته قبل اسبوع من اغتياله ، وهذا شيء غريب وعارض ، ولكنه تاريخ قديم ، وربما كان قد تعرض للمبالغة انني افتح ملحقا ملونا من ملاحق صحف يوم الاحد ، فأقرأ انه قبل اسبوع من الانفجار الذي دمر طائرة شركة الطيران البريطانية الأوروبية من طراز كوميت يوم الثاني عشر من أكتوبر عام ١٩٩٧، كان اتراكب نيكوس بابايترو كانت تطارده الهواجس المشؤومة والاحلام التي تدور حول الموت والحداد ، حتى انه حاول قبل اقلاع الطائرة بساعة أن يحول تذكرته الى طائرة اخرى وليس هذا تاريخا بعيدا ، ولكن ينبغي أن نذكر ان باباتترو كان يحمل القنبلة التي انفجرت مصادفة لقد كان مهربا للمواد المتفجرة، وكان قد قام بست رحلات مشابهة قبل تلك الرحلة الأخيرة في السنة نفسها فلماذا اذن لاحقته الهواجس في تلك الرحلة بالذات ؟ اننا نهز اكتافنا ، ونوافق على أن هذه مسألة غريبة وشاذة ، ثم نروح نفكر في موضوع آخر اسمحوا لي ان اقول انني لا اقترح - بالتأكيد - انه ينبغي علينا أن ننفق حياتنا في الاهتمام بالاحلام والهواجس ، او لائذين بقارئي الحظوظ والراجمين بالغيب ، انها لغريزة صحية تلك التي تجعلنا نتجاهل انهواجس المشؤومة والاحلام ، ونستمر في الاهتمام بمشاغل الحياة العملية ولكن الموقف المتصلب المتعنت ازاء مثل هذه الاشياء هو خطا باكثر معاني هذه الكلمة بساطة ومنطقية فمنذ قرنين فقط من الزمان، أعلن اكثر العلماء تمتعا بالاحترام ، انه كان من السخف أن يؤكد احد ان عمر الأرض يزيد على بضعة آلاف قليلة من السنين او ان يؤكد أن وحوشا غريبة الهيئة قد هامت في غاباتها وحينما كان بعض العاملين في المحاجر يكتشفون بعض المخلوقات البحرية المتحجرة ،

او حتى جمجمة حيوان من فصيلة الديناصور ، فان الشيء المكتشف كان يفسر بانه تكوين حجري شاذ ، وانه تقليد صخري قامت به الطبيعة لاشكال تشبه اشكال الكائنات الحية على سبيل الدعابة أو الاغراب وطوال الأعوام الخمسين التالية كرس العلماء المتصلبو الرؤوس كل وقتهم وقدرتهم فى الابتكار من أجل أن ينكروا بتفسيراتهم الاصول الحقيقية للحفريات والعظام التي كانت تكتشف بأعداد متزايدة وقد استطاع كوفيير ، وهو واحد من اعظم علماء الحيوان في القرن التاسع عشر ان يدمر حياة زميله لامارك العملية حينما وصم نظرية لامارك في النشوء والارتقاء بانها نظرية خيالية وغير علمية ، اما معتقده هو الأكثر علمية فكان يقول بأن كل مخلوقات ما قبل التاريخ التي كان وجودها قد أصبح معترفا به قد بادت نهائيا ولحقها الدمار الشامل في سلسلة متعاقبة من الكوارث الطبيعية العالمية التي مسحت وجه الأرض ونظفت البسيطة واعدتها لخلق الانسان وحيوانات العصر الحالي ومثل هذا النوع من التفكير والمواقف ليس هو الاستثناء في تاريخ العلم ، وانما القاعدة أن واحدا من المعتقدات الجامدة الرئيسية للعلم ، يقول بأن الرجل الذي ينكر نظرية ما ، يحتمل أن يكون اكثر علمية من هذا الذي يؤكدها وعلى الرغم من كوفيير فان افكار النشوء والارتقاء الخيالية قد أحرزت انتصارا وسادت على غيرها من الافكار ، رغم أن الشكل الذي استطاعت ان تكون مقبولة به لدى العلماء في الغالب ، جعلها تبدو في صورة قوانين البقاء للاصلح الرتيبة الميكانيكية ان البطء هو قانون التغير وان آخر التطورات في علم الأحياء، قد تنتهي بنا الى تغيير تصورنا عن الكون ، بقدر ما غيرته عظام الديناصورات من تصورنا عن الأرض وذلك هو الافتراض الذي يقوم عليه هذا الكتاب

فقد لا يكون بعيدا ذلك الوقت الذي سنستطيع فيه ان نقبل ظاهرة خفية باعتبارها ظاهرة طبيعية مثلما نقبل الأن وجود الذات ومن اجل ان ازيد هذا التأكيد وضوحا ، ينبغي علي ان اتحدث باختصار عن علم السيبرانطيكا الجديد فقد اخترع علم السيبرانطيكا الجديد في عام ١٩٥٨ ، على يد عالم الطبيعة نوربرت وينار في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا انه علم السيطرة والاتصال ، في الآلات والحيوانات والكلمة يونانية تعني رجل الدفة في السفينة ، او الربان ، او الحاكم ان الكرة الطافية في صهريج المرحاض تطبيق بسيط للسيطرة السيبرناطيكية : فحينما يمتلىء الصهريج تقطع سدادة الكرة انسياب الماء وبقدر ضئيل من الذكاء ، يمكنني أن اصنع جهازا يحقق سيطرة مماثلة لاغلاق صنابير حوض الحمام حينما تصل فيه المياه إلى منسوب معين ، لكي اوفر على نفسي مهمة القيام والجلوس في الحوض لاغلاق الصنابير ولكن في العلم والصناعة ، فان العملية التي اريد السيطرة عليها قد تكون أكثر تعقيدا بدرجة مضاعفة من صنابير حوض الحمام فقد يكون الهدف من السيطرة - مثلا - عملية كيميائية لابد أن تتطور في اتجاهات متعددة وفي هذه الحالة ، لا بد أن استخدم حاسبة الكترونية تنفذ برنامجا معينا وضع لهذا الغرض من اجل اعدادها للتعامل مع عدد كبير من المواقف ستطرا في مسار العملية ان بطاقة حفر عليها عدد معين من الثقوب تكفي لاعطاء الحاسبة الألكترونية تعليماتها ولجعلها تتصرف مثل المراقب الذي يطمئن على سير العمل سيرا صحيحا ومنذ أواخر القرن التاسع عشر كان قد اصبح مفهوما ان الكائنات الحية تستمد خصائصها من خلايا دقيقة يطلق عليها اسم الجينات أي حاملات الخصائص الوراثية يحتويها كل من السائل المنوي الذكري والبويضة الأنثوية أن لون شعري وعيني ،

وحجم قدمي ، كلها أمور تقررها الجينات ، ولكن لم يكن هناك من تبين الى حد اليقين الكيفية التي تقوم بها الجينات بهذا العمل وفي منتصف الخمسينات من القرن العشرين اصبح من الواضح ان الجينات تشبه بطاقات الحاسبة الالكترونية بثقوبها المحفورة فيها اما الثقوب فانها بالفعل جزيئات من مادة تدعى دنم تترابط الواحدة منها بالاخرى على شكل لولب مزدوج وفي هيئة شيء يشبه لولبين التصق الواحد منهما بالاخر في اتجاهين متعارضين وكلما زاد ما نعرفه عن هذا النظام الذي يشبه نظام الحاسبة الالكترونية ، وهو النظام الذي يجعلنا على ما نحن عليه ، كلما زادت مراوغته لنا وزادت حيرتنا ازاءه آن نظرية داروين في النشوء والتطور تفكر في عنق الزرافة وفي بدن الفيل وتفسرهما على اساس المصادفة ، تماما مثلما قد تفسر شكل صخرة اتخذت هيئة الوجه بأن تشير الى فعل الرياح والمطر أن العلم يكره الغائية، اي انه يكره نكرة استهداف وغرض معين ان الصخرة لم لا تشأ ان تنحت حتى تتخذ هيئة الوجه ، كما انه لم يكن من مشيئة الريح والمطر ان ينحتاها على هذه الهيئة ، انما حدث هذا ، هكذا وحسب ، وبصورة مشابهة ، يكره علماء الأحياء البيولوجيون تلك الهرطقة المعروفة باسم النزعة الحيوية ، وهي فكرة ان الحياة بشكل ما تريد ان تنتج مخلوقات اكثر صحة وذكاء انما تم انتاج مثل هذه المخلوقات لان الصحة والذكاء يصمدان البقاء بصورة افضل من المرض والغباوة ولكن حينما يتبين المرء أن الكائنات البشرية قد تم انتاجها بواسطة بطاقة حاسبة الكترونية شديدة التعقيد ، يصبح من الصعب عليه ان يتجنب الانزلاق الي الغائية والتساؤل عمن قد يكون وضع البرنامج لهده الحاسبة الالكترونية

في عام ١٩٩٩ ، القى عالم من علماء السيبرانطيكا ، هو الدكتور دافيد فوستر، محاضرة في المؤتمر الدولي لعلوم السيبرانطيكا بالكلية الملكية في لندن ، ورسم صورة لبعض الدلالات الفلسفية لتلك الكشوف اشار الى أنه من وجهة نظر عالم السيبرانطيكا ، فان من الممكن أن ينظر الى الكون باعتباره مجموعة من المعطيات وعملية جمع واحصاء و ترتيب متصاعد لهذه المعطيات ان ثمرة البلوط ، على سبيل المثال، يمكن اعتبارها برنامجا لشجرة بلوط وحتى الذرة يمكن أن نفكر فيها باعتبارها بطاقة حاسبة الكترونية حفر فيها ثلاثة ثقوب ، على أساس أن الثقوب الثلاثة هي : (أ) عدد الجزيئات في النواة ، (ب) عدد الالكترونات التي تدور حولها ، (ج) طاقة تلك الاكترونات ، كما يعبر عنها على اساس اصفر الجزيئات المعروفة من الطاقة ، وهو الجزيء الثابت عند بلانك يمضي الدكتور فوستر قائلا :من المؤكد انه يجب ان يكون واضحا ان الطبيعة الاساسية للمادة هي أن الذرات هي ابجدية الكون ، وان التركيبات الكيميائية هي الكلمات ، وان مادة دنم هي ما يكاد يكون جملة طويلة ، او حتى كتابا كاملا يحاول ان يقول شيئا مثل فيل أو زرافة او حتى انسان ويمضي لكي يبرز ان وحدة البناء الأساسية في أي نظرية اعلام كهربائية هي الموجة الكهربائية الواحدة ، والموجة الواحدة تتكون من نصفين ، لانها تقاس بدءا من قمة نتوء او انحناء ، الى قاع النتوء او الانحناء التالي : وهذا معناه أن الموجة نظام ثنائي او مزدوج ، والحاسبات الالكترونية تعمل على اساس الرياضيات الثنائية أو المزدوجة وهذه خطوة هامة في بناء حجته ، لاننا اذا فكرنا في الموجات باعتبارها المفردات الاساسية للكون ، اذن فسوف يمكنك أن تفكر في الحياة - و في المادة كلها في الحقيقة - باعتبارها راجعة الى موجات تمت برمجتها بطريقة سيبرانطيكية ما

أن ما يقوله يبدو بالتأكيد شبيها بالغائية انني اذا رايت عملية كيميائية معقدة ، توضع لها القواعد ويتم التحكم فيها بواسطة الحاسب الالكتروني فانني سأستنتج ان شخصا ما قد وضع البرنامج لهذا الحاسبه والدكتور فوستر يقول ان الأبنية المعقدة للحياة حول عالم السيبرانطيقا ، تتكشف لعينيه في صورة عملية جمع واحصاء المعطيات وترتيبها بطريقة تصاعدية على نطاق هائل وهذه مسألة حقيقة علمية وهو يجد نفسه بالطبع يتساءل عن الذكاء الذي يقوم بجمع المعطيات واحصائها وتصنيفها تصاعديا ؟ يخطو الدكتور فوستر بعد ذلك اكثر خطواته اثارة للنقاش والخلاف فهو يفسر موقفه بأنه كخبير في التسيير الذاتي ، حينما اصمم نظاما للسيطرة من اجل عملية ما ، فانه من البديهي أن تكون سرعة نظام السيطرة اكبر بكثير من سرعة حركات العملية المطلوبة فأنت ، على سبيل المثال ، تستطيع ان تقود سيارتك لانك تستطيع أن تفكر بأسرع من عمل الآلة ، ولو لم تستطع ذلك لاصطدمت سيارتك بأي شيء فورا ولكن في هذه الحالة ، لا بد أن توضع البرامج للمادة في صورة ذبذبات ـ او موجات ـ اكثر سرعة بكثير من ذبذبات المادة نفسها أي في شكل اشعاعات كونية والكون مليء بالاشعاعات الكونية بالطبع في رأي الدكتور فوستر فانه من المحتمل أن تكون تلك الاشعاعات هي القوة الكامنة وراء برمجة جزيئات مادة ال دنم ولكن ، فلنلاحظ النقطة المحورية هنا ان الموجة التي تحمل معلومة تختلف تماما عن الموجة التي لا تحمل معلومة مثلها ان المعلومة مفروضة على بنائها عن طريق الذكاء ان النتيجة التي يصل اليها الدكتور فوستر ـ

رغم انها تقال بالحذر النموذجي للعالم تحيط بها هالة من المبررات والمقدمات - هي أن مستوى الذكاء المتضمن في بناء مثل تلك الموجة لا بد أن يكون ارقي بكثير جدا من ذكائنا الإنساني وهذا ايضا نوع من الاستقراء او الاستدلال العلمي وليس تخمينا ميتافيزيقيا انه يذكر تأثير كومبتون في الطبيعيات ، الذي يراد عن طريقه طول الأشعة السينية عن طريق تركيز شديد للالكترونات ، والقاعدة المستخلصة من هذا القانون هي انك تستطيع أن تصنع ضوءا أحمر من ضوء ازرق فالضوء الأزرق الاسرع ذبذبة يضع برنامجا للضوء الأحمر ، وليس العكس

ان ما يقوله الدكتور فوستر لا يختلف اختلافا جوهريا عن حجة الساعة التي قال بها بالي Paley آن بالي اللاهوتي قد قال أنه حينما ينظر الى كيف تعمل ساعته ، فانه يتبين أنها تدل على صانع ذكي ، وان الانسان - رغم كل شيء - اكثر تعقيدا من أي ساعة في الوجود ومع ذلك فان الدكتور فوستر - اذا كنت قد فهمته فهما صائبا - لا يحاول ان يدخل الله من الباب الخلفي انه اقل اهتماما بالنظريات التي تدور حول من يضع البرامج منه بالحقيقة التي توضح ان ثمة عملية برمجة تتخلل الطبيعة بأسرها، انه مهتم بالسؤال الذي يبحث عن الكيفية التي تحمل بها المعلومات الى مادة دن م، وان الاشعة الكونية تتقدم باعتبارها افتراض معقول للاجابة على هذا السؤال وهو يقول : يقيم المرء صورة جديدة للكون باعتباره كونا مرقما او كون معلومات ، ولكن بسبب المؤثرات السيبرانطيكية العاملة فيه ، فانني اظن انني افضل ان ادعوه : الكون الذكي انه لمما يثير الاهتمام أن الدكتور فوسترلا يصل الى هذا الكون الذكي من خلال البدء بفكرة الغاية او الله ، مثلما يفعل المفكرون الدينيون ، وانما يصل اليه ببساطة، عن طريق الاهتمام بالحقائق التي نعرفها الآن عن طريق البرمجة السيبرناطيكية للمادة الحية

ومن خلال هذا الاهتمام تبرز صورة للكون تتلاءم مع نظريات العلماء وعلماء النفس الآخرين خلال السنوات العشرين الماضية تبار دي شاردان ، وسير جوليان هكسلي ، وادينجتون ، ابراهام ماسلو ، فيكتور فرانكل ، ميشيل بولاني ، نودام تشومسكي ان ما يشترك فيه كل هؤلاء الرجال هو مقاومة النزعة التصويرية التي اعني بها محاولة تفسير الانسان والكون عن طريق قوانين الطبيعة او سلوك فئران المعامل ، على سبيل المثال ، يكتب عالم النفس ابراهام ماسلو قائلا : يتمتع الانسان بطبيعة اسميه مما احتوته غرائزه باعتباره طبيعته الادني ، الحيوانية اما نظرية الدكتور فوستر عن الكون المرقم فقد تكون اكثر جسارة من نزعة النشأة عند هكسلي ووادينجتون ، ولكن الروح متشابهة بصورة جوهرية ، ليس من تناقض بينهما كل هذا يعني انه لاول مرة في التاريخ الغربي يستطيع كتاب عن الغيب ومعرفته أن يكون شيئا أكثر من مجموعة من الخوارق والأقوال السخيفة المجردة من المعني ان الدين والنزعة الصوفية والسحر ، تنبع كلها من نفس الاحساس الاساسي ازاء الكون : احساس مفاجيء بالمعنى الذي يستطيع الناس احيانا ان يلتقطوه مصادفة ، مثلما قد يلتقط مذياعك محطة مجهولة دون قصد والشعراء يشعرون بأننا مفصولون عن المعني بحائط سميك من الرصاص ، واننا احيانا ، ودون سبب نستطيع ان ندرك ان الحائط يبدو وكأنه قد اختفى واننا نجاة مغمورون بالمغزى اللانهائي للاشياء آن ايفان كارامازوف ، في احدى روايات دستويفسكي ، يحكي قصة عن ملحد لم يكن يؤمن بالحياة بعد الموت ، وبعد أن مات ، حكم الله عليه بأن يسير الف مليون من الأميال على قدميه عقابا له، ويرقد الملحد على الطريق رافضا أن يسير مليونا من السنوات ، ومع ذلك ، فانه بعد قليل قام فجر نفسه ، وتحامل على قدميه وسار المليار من الأميال على مضض

وحينما سمح له اخيرا بان يدخل الفردوس ، اعلن على الفور ان خمس دقائق يقضيها في الفردوس كانت تستحق ان يسير عشرة اضعاف ما ساره بالفعل يضع دوستويفسكي يديه على هذا الاحساس الصوفي بمعني يبلغ من الحدة درجة تجعله يفوق او يتجاوز اي شيء نستطيع ان ندركه ويستطيع أن يجعل اي مجهود نبذله يستحق العناء ويكتسب القيمة انه الاحساس بالمعنى الذي يدفع الانسان الى ان يبذل الجهود اللازمة من اجل الارتقاء انه حينما يؤمن بأن ضجره وتشاؤمه بدلاله على حقيقة الكون انه يرفض ان يبذل أي مجهود اما اذا استطاع - مثل الخاطيء الذي حكى عنه ايفان - يلمح المعني لمحة مفاجئة ، فانه جدير بأن يصبح منيعا على القتل لا يمكن قهره ، ويمكن أن يكون سير مليار من الأميال مجرد نكتة اذن فقد اتفق العلم الغربي دائما على ان هناك الكثير الذي عليه ان يكتشفه في الكون - ولكنه بصورة جوهرية كون ميت وميكانيكي ، ويمكنك ان تقول ان العالم ليس سوى باحث مجيد عن الحوادث العارضة والباحث عن الحوادث العارضة ، هو نفسه نتاج حادثة عارضة ، ولكن الانسان يحركه المعنى الى درجة أعمق بكثير مما تحركه الحوادث لقد وجد عالم الكهوف القديمة ؛ الفرنسي نوربرت كاستيريت ان الكهوف السفلية في مونتسبان الجديرة بان تكتشف مثيرة للاهتمام ، ولكن هذا الاهتمام لم يكن شيئا يذكر بالنسبة لما شعر به من الاثارة حينما وجد أن جدران الكهوف كانت تغطيها رسوم الاسود والجياد، فتبين انه قد عثر بالصدفة على فن انسان الكهوف في عصور ما قبل التاريخ أن اكتشاف نتاج الذكاء لاكثر اثارة على الدوام من اكتشاف نتاج الحادثة العارضة فلو أن دافيد فوستر على صواب ، او حتى لو ان رابه هو نصف الصواب ،

فانها البداية لعصر جديد في المعرفة الإنسانية ، ذلك أن العلم سوف يكف عن ان يكون بحثا عن حادثة عارضة لكي يصبح بحثا عن معني انه كتب قائلا : أن الكون بصورة كلية بناء متكامل من الموجات والذبذبات ، مضمونها الداخلي هو المعني معترفا في الوقت نفسه بأن ادواتنا ما تزال غليظة الى درجة تمنعنا من أن نحل شفرة المعاني التي تحملها الذبذبات عالية التردد ولكن ان نؤمن بأن المعني موجود هناك ، وانه من الممكن حل شفرته ، فان هذا يمثل خطوة هائلة الى الامام ، تكاد تساوي اللمحة الخاطفة التي القاها الملحد على الفردوس وبسبب اهدافنا القريبة ، فان هذا الإيمان ، يمدنا ايضا بصورة للكون تفسح مكانا للظواهر الخفية مثلما تفسح مكانا للطبيعيات الذرية في الماضي كانت المشكلة دائما هي اين نرسم الخط الفاصل بين نوعين من هذه الظواهر فاذا كان بوسعك أن تقبل الاتصال العقلي عن بعد والأحاسيس او الاحداث المنبئة بالمستقبل ، فلماذا لا تقبل التنجيم وقراءة الحظ او الممسوخين إلى ذئاب متوحشة ومصاصي دماء واشباح والساحرات يطلقن التعزيمات اللعينة ؟ لانك اذا كنت تزمع آن تناقض المنطق العلمي ، فيمكنك اذن أن تأخذ سعدا بسعيد او ان تلقى جزاء اللص لسرقة عنزة مثلما تلقاه لسرقة جمل، فانظر كم من الاشياء المستحيلة يمكنك ان تؤمن بها قبل أن تتناول طعام الإفطار ومن الجانب الآخر ، فان نظرية الدكتور فوستر تتفق مع انواع الحدس لدى الشعراء والمتصوفة والمؤمنين بالظواهر الخفية : تتفق على ان ثمة معانى تطفو حولنا انقطعت الصلة بيننا وبينها بصورة طبيعية بسبب العادة ، والجهل وعتمة الحواس او بلادتها ان ما يدعي بالموروثات الخفية ، قد لا تكون اكثر من خرافات متوحشين جهلة ،

ولكنها يمكن ايضا ان تكون محاولة لتفسير واحدة من تلك النظرات الخاطفة كاللمحة ، تلقى بالصدفة على المعنى الذي يصل الى اعماق أبعد من التوافه اليومية ، في اللحظة التي يلتقط فيها جهاز المذياع الأنسانى ذبذبات غير معروفة وعلى أي حال فان كلمة الغيب تعني المجهول، الخفي او ربما لم تكن تلك النظرات الخاطفة عارضة ولم تحدث بالصدفة ، ربما كان الكون الذي يحاول أن يتصل بنا ، ان يتواصل معنا ولكن سواء كنا نريد ان نمضي الى هذا المدى ام لا نريد ذاك ، فان هناك احساسا بالحرية في كوننا قادرين على أن نقبل أن الكون مليء بالمعنى الذي نستطيع أن ندر كه لو اننا تحمسنا لذلك وبذلنا من اجله ما يتطلبه من جهد ويعبر برتراند راسل عن الاحساس نفسه في كتابه تطور فلسفتي حينما يروي كيف وصل الى رفض فكرة كانط القائلة بانه ليست هناك حقيقة في العالم الخارجي ، خارج ذات الانسان : باحساس بالهرب من سجن ضيق ، سمحنا لانفسنا بان نظن ان الحشائش خضراء ، وان الشمس والنجوم سوف تكون موجودة اذا لم يكن هناك من يشعر بها او يحس بوجودها ، وسمحنا لانفسنا ايضا بان نظن أن ثمة عالما لانهائي الزمن ، متعددا ، من مثل أفلاطون لابد للانسان ان يؤمن بالحقائق الواقعة خارج ضالته هو الخاصة ، خارج تفاهته اليومية اذا كان له أن ينجز أي شيء له قيمة او يستحق الانجاز ويصل بي هذا إلى واحدة من القضايا المحورية لهذا الكتاب فمنذ عام ١٨٨٧ ، اشار ماكسى موللر ، محرر كتاب : كتب الشرق المقدسة، اشار الي انه بسبب كل الدلائل الممكنة ، فان اسلافنا مئند الفين من الأعوام ، كادوا ان يكونوا مصابين بعمى الالوان ،

مثل معظم الحيوانات الأن : لم يعرف اكسونو فون سوى ثلاثة من الوان قوس قزح ، ولم يعرف ديموقريطوس سوى اربعة الوان منها الأسود والأبيض والأحمر والأصفر ومن الواضح ان هومير قد ظن ان للبحر لون النبيد وليس هناك كلمات تدل على الالوان في حديث الشعوب الهندو اوروبية ويمكننا اذن أن ندرك السبب الذي دفع الاسكندر المقدوني تلميذ ارسطو ، الى ان ينفق حياته في غزو العالم فلا بد انه كان عالما واحد اللون كئيبا ، لا تمييز فيه بين حمرة النبيذ وزرقة البحر الخضراء، وخضرة الحشائش الزمردية، وزرقة السماء العميقة بل ان السبب في مثل هذا العمل مفهوم من الناحية البيولوجية كانت الحياة قاسية وحشية عنيفة ، ولم تكن للقدرة على ادراك الفروق الحاسمة بين الأفكار والألوان قيمة تفيد في البقاء على قيد الحياة وقد كان الاسكندر خلاقا مليئا بالحيوية ، فاي شيء اذن كان امامه أن يفعله سوى أن يغزو العالم، ثم يبكي حينما لا يبقى امامه ما يمكن غزوه ؟

ولكن القدرة على الاستمتاع بالذبذبات الحاسمة تمثل جانبا هاما من متنفساتنا الحيوية أن رجلا لا يستطيع أن يقرا ، سوف يقضي وقتا بالغ الكابة حينما يضطر الى ان يقبع في المستشفى بعد جراحة خطيرة، بينما قد يجد الرجل الذي يحب القراءة ان الكسل لذيذ وممتع : ان الضجر هو الافتقار الى القدرة على تسجيل الذبذبات الحاسمة وتعريف الكيان العضوي الحي هو انه كيسان عضوي قادر على الاستجابة لذبذبات الطاقة وهذه الذبذبات تكون المعاني فسواء كنت مسترخيا امام نار المدفأة ، أو استمتع بكأس من النبيذ ، أو انفعل بسماع سيمفونية ، او اشتم رائحة الحشائش المقطوعة وانا اجزها في الحديقة ،

فانني اتلقى في كل حالة معاني واسجل ذبذبات ليس الفارق الهام بين الرجل وكلبه فحسب هو ان الكلب مصاب بعمي الألوان ، وانما الفارق الهام بينهما هو أن للرجل مجالا أوسع بكثير للاستجابة فيما يكاد يكون كل ميدان كلما ازداد رقي شكل الحياة ، ازداد عمق قدرتها على تسجيل المعنى ، وازدادت قوة قبضتها على الحياة كان المعني بالنسبة للاسكندر مرتبطا بالغزو، وحينما بلغ الحد الأقصى للغزو ، كان ايضا قد بلغ الحد الأقصى لطاقته كان قد غزا العالم وهو في الواحدة والثلاثين ومات في الثالثة والثلاثين والارتقاء ببساطة هو القدرة على تلقي وتسجيل المعاني الموجودة بالفعل ان الأزرق والأخضر قد وجدا حتى وان لم يكن اكسونو فون قد استطاع أن يميز بينهما ونحن نرتقي على الدوام في قلب عالم يصبح على الدوام اكثر فتنة وسحرا كلما تعلمنا ان نتلقى وان نسجل ذبذبات جديدة ولا شك أن البشرية بعد الف سنة اخرى، سوف ترى كونا تتيه فيه الأبصار يتلالا باثني عشر لونا لا وجود لها بالنسبة لنا اذن ، فلا بد أن يكون واضحا أن زيادة في حدة الذهن انما هي ارتقاء نحو الداخل ان عامل اصلاح الساعات في فترة التمرين ؛ يبدا باصلاح الساعات الدقاقة الكبيرة، ثم يتدرج ببطء حتى يصل الي ادق الساعات واصغرها انه يطور نوعا متزايدا من السكينة والتركيز ، وهذه ميزات داخلية فلقد بلغ الانسان نقطة في ارتقائه اصبح عليه فيها ان يرتقي من الساعات الدقاقة الكبيرة الى الساعات الصغيرة ، من الكبير الى الدقيق لا بد له أن يلتفت الى الداخل بصورة متزايدة وهذا يعني ان عليه أن يلتفت الي المستويات الخفية من وجوده ، الى الخفي ، الى المعاني والذبذبات التي كانت حتى الآن أكثر دقة من أن يقبض عليها بيديه او أن يدركها بعقله

القسم الأول

استقصاء للموضوع

السحر - علم المستقبل

في مقدمة كتاب نموذج جديد للكون الذي الفه ب د اوزبنسكي فقرة لم يحدث أبدا أن قصرت في تحريك اعصابي واثارتي ، تقول :

انه عام ١٩٠٩ هنا مكتب التحرير الخاص بالصحيفة اليومية الصباحية التي تصدر في موسكو تسلمت لتوي الصحف الأجنبية ، وعلي أن اكتب مقالا عن المؤتمر القادم في مدينة لاهاي الهولندية انها صحف فرنسية والمانية وانجليزية وايطالية جمل وراء جمل ، متعاطفة ، نقدية ، ساخرة ، صحابة ، متفاخرة ، كاذبة ، واسوا ما فيها تلك العبارات الآلية الكاملة ، العبارات التي استخدمت الاف المرات وسوف تستخدم ثانية في مناسبات مختلفة وربما في مناسبات متناقضة علي ان اصنع حصرا شاملا لكل تلك الكلمات والآراء متظاهرا بانني آخذها على محمل الجد، ثم ، وبطريقة لا تقل جدية ، على أن اكتب شيئا من عندي ولكن ماذا يمكنني أن أقول ؟ انه امر لا يثير سوى الملل سوف يجتمع الدبلوماسيون وكل انواع السياسيين ورجال الحكم وسوف يتحدثون ، وسوف توافق اوراقهم او لا توافق على ما يقال ، وسوف يتعاطفون او يتناقرون ثم سوف يبقى كل شيء على ما كان عليه ، أو ربما اسوا ما زال الوقت مبكرا ، هكذا اقول لنفسي ، فربما طرا شيء ما على راسي فيما بعد واذ ازيح الأوراق جانبا ،

فانني افتح احد الادراج في مكتبي المكتب كله مزدحم باكوام مشتبكة من الكتب ذات العناوين الغريبةعالم غامض والغموض، الحياة بعد الموت ، أتلانتيس ولومپريا ، قواعد الساحر الاكبر وطقوسه معبد الشيطان الحكايات الصادقة لاحد الحجاج وغيرها وغيرها هذه الكتب وانا لم ننفصل لاكثر من شهر، فاصبح عالم مؤتمر مدينة لاهاي والمقالات الافتتاحية اكثر واكثر غموضا ولا واقعية بالنسبة لي فتحت احد الكتب بطريقة عشوائية ، شاعرا بأن مقولتي لن تكتب في هذا اليوم حسنا ، يمكنها أن تذهب إلى الشيطان فان الانسانية لن تخسر شيئا اذا نقصت المقالات عن مؤتمر لاهاي مقالة واحدة حينما قرات هذه الفقرة للمرة الأولى ، اضافت اليها ظروفي الخاصة مغزى جديدا كنت في العشرين من عمري وكنت متزوجا منذ عام كانت زوجتي وولدنا يعيشان في حي ايرلس كورت بلندن، وكان هذا هو بيتنا الرابع في سنة واحدة ، وكانت مالكة متزلنا نصف المجنونة هي رابعة مالكات البيوت اللواتي قابلتهن ، واكثرهن سوءا كنت متعطلا عن العمل احصل على الاعانة الحكومية للبطالة ، وقد وجدت هذا الوضع مثيرا للاعصاب بنفس الدرجة التي تتمتع بها الوظائف التي حصلت عليها في المصانع منذ زواجي لم تبد لي لندن مجرد مدينة غريبة، بل بدت لي غير حقيقية بشكل ما وهكذا فقد ادركت احساس اوزبنسكي بالغثيان ازاء مشروع الكتابة عن مؤتمر لاهاي ، وادركت ايضا ذلك الاشتياق الى عالم آخر ذي معنى اكثر عمقا ، مثلته الكتب التي تتحدث عن السحر والغموض وهناك فقرة في كتاب لويس - فرديناند سيلين تصف العالم بانه عالم تعفن بالاكاذيب ، تعفن حتى وصل الى درجة الانهيار والتحلل لم يكن على الا ان انظر الى الاعلانات في انفاق مترو لندن ،

او الى العناوين الرئيسية في الصحف اليومية ،لكي اكتشف انه وصف واضح الصدق اكاذيب وغباوة وضعف وتوسط عادي - انها حضارة دون مثل عليا كان هذا هو ما جعلني اقرا اوزبنسكي ، وكل الكتب الأخرى عن السحر والنزعة الصوفية الغيبية التي استطعت ان اعثر عليها في المكتبات المحلية ، ليس فقط لانها كانت منفذا للهرب من عالم المصانع ومالكات المنازل العصابيات ، وانما لانها اكدت حدسي بعالم له حقيقة من طراز ونظام مختلفين ، له شكل اكثر قوة من اشكال الوعي من نوع مختلف عن النوع الذي بدا لي انني اشارك فيه الملايين الثمانية الأخرين من أهالي لندن ولكني لو سئلت في ذلك الوقت عما اذا كنت اؤمن حرفيا بالسحر ، لكنت قد أجبت بالنفي: وان ذلك كان نوعا من الخلق الخيالي الشعري ، رمزا للعالم الذي كان لا ينبغي أن يوجد ، ولكنه لم يوجد قط وباختصار ، نوعا من الاماني التي حطت محل التفكير في الجملة الأولى من كتاب السحر الشعائري ، يكتسب أم بتلر قائلا: ان الهدف الرئيسي لكل سحر هو فرض الارادة الانسانية على الطبيعة، وعلى الانسان ، وعلى العالم الذي لا تدركه الحواس من اجل تحقيق السيادة عليهم واذا كان هذا تعريفا صحيحا وعادلا للسحر ، اذن لاتفقت مع جون سيموندز ، كاتب ترجمة حياة اليستر كراولي ، الذي قال : أن المشكلة الوحيدة في السحر هي انه لا يعمل شيئا ولا يؤدي الى شيء لقد شعرت بأن السحر ليس سوى محاولة خشنة فجة أولية في الطريق الى العلم ، وان العلم قد تجاوزه الآن وخلفه وراءه ولو كنت قد ظللت على تقبلي لهذا الرأي ، لما كنت اكتب هذا الكتاب

ان الامر يبدو لي الآن ان العكس تماما هو الصحيح لم يكن السحر هو علم الماضي انما هو علم المستقبل انني اؤمن بان العقل الإنساني قد بلغ نقطة في ارتقائه وتطوره اصبح فيها على وشك تنمية قدرات جديدة - قدرات كانت قد اعتبرت ذات مرة قوى سحرية من المؤكد ان هذا العقل قد امتلك على الدوام قدرات اعظم بكثير مما نعتقد الآن : قدرات مثل التواصل العقلي عن بعد، والاحساس مقدما بالخطر ، والحاسة السادسة او البصبيرة، وصنع المعجزات الطبية والقدرة على الشفاء ولكن تلك القدرات كانت جزءا من ميراثه الحيواني الغريزي فطوال الالف سنة الأخيرة أو نحوها ، كان الجنس البشري مشغولا بتطوير نوع آخر من القدرات المرتبطة بالذهن ، والنتيجة هي الحضارة الغربية ولكن قدراته غير الواعية لم تضمر ، وانما اختفت تحت الارض وقد اكملت العجلة الآن دورة كاملة ، فبلغ الذهن حدودا معينة ، ولا يمكنه ان يتقدم الى ما وراءها حتى يسترد بعضا من القدرات المفقودة وسوف يدرك كل من قرأ الفلسفة الحديثة ما اعنيه لقد اصبحت، فلسفة ضيقة الافق ، متزمتة ، منطقية ، وهي تحاول ان تعوض افتقارها إلى صور الحدس الأكثر اتساعا ، بتركيزها المجهري على التفاصيل لقد فصلت نفسها عن مصدرها وما هو في الحقيقة مصدر الفلسفة - او في هذا الصدد - ما هو مصدر اي معرفة ؟ انه بشكل اساسي الاحتياج الى القوة ليس عليك الا ان تراقب وجه طفل تعلم لتوه ان يفتح بابا بأن يدير الأكرة لكي تدرك ما هو الغرض من المعرفة وفي القرن العشرين اصبحت القوة كلمة تثير الشكوك ، لانها اصبحت مرتبطة بفكرة القوة اذ تفرض نفسها على الآخرين

ولكن هذا المعنى ليس سوى تطبيقات كلمة القوة واهمية ان واحدة من الأساطير الأساسية عن السحر ، هي تلك التي تدور حول الساحر الباحث عن القوة السياسية انه يتلقى عددا من التحذيرات ، فاذا اصر على هدفه ، ناله الدوارف فالقوة السياسية تدعم الأنا ، اما القوة السحرية فترفع من مستوى اللاوعي ، وتبعده عن مستوى الدافع غير الشخصي يصف اوزبنسكي بداية بحثه عن الخارق المعجز بقوله :انني تلميد في الصف الثاني او الثالث ولكن بدلا من كتاب زيجيرت عن قواعد اللغة اللاتينية اضع امامي كتاب مالينين وبورنين عن الطبيعيات لقد استعرت هذا الكتاب من أحد الأولاد الأكبر سنا ، وانا اقراه بينهم وفي حماس ، تغلبني النشوة احيانا ويتملكني الرعب في احيان أخرى ، امام الاسرار التي تتكشف وتتفتح أمامي كل ما حولي جدران تتهاوى، وافاق لا نهاية لبعدها تنفسح امام عيني في جمال لا يصدق انها كما لو كانت خيوط كثيرة، لم يشك احد في وجودها ولم يعرف بها أحد، تبدا في الامتداد لكي تربط الأشياء بعضها بالبعض لاول مرة في حياتي يبزغ عالمي من قلب الفوضى كل شيء يصبح مرتبطا بكل شيء مكونا كلا منتظما منسجما متناغما قد يكون هذا النوع من التعبير اللغوي مسرفا في تضخيم المعاني : آفاق لا نهاية لبعدها ، و في جمال لا يصدق ولكن قد يكون من المهم أن نتذكر ان اوزبنسكي كان قد درب وتعلم بوصفه عالما ، وانه يحاول أن يكون دقيقا صارما في دقته انه يعني بالتحديد ذلك : الاحساس المفاجيء بالمعاني ، الاكبر بكثير من ذات الإنسان،

والتي تجعل المشاغل الشخصية السابقة كلها ، تبدو في صورة التوافه وحتى برتراند راسل ، مؤسس الذرية المنطقية ، يضع يده على هذا الإحساس :لا بد لي ، قبل أن أموت ، ان اجد طريقا ما لقول الشيء الأساسي الذي هو في داخلي ، والذي لم اقله ابدا بعد - أنه شيء ليس حبا وليس كراهية ولا شفقة ولا أحتقارا ، وانما هو نفس الحياة ، نسمتها ذاتها، قوي جامح آت من مكان قصي بعيد ، جالبا في داخل الحياة الانسانية قوة الاشياء اللاانسانية الهائلة والخالية من اي عاطفة الى درجة مخيفة

أن القوة التي يمكن أن تستمد من هذه القوة الخالية من الانفعال والمخيفة ليست قوة مسيطرة على الأشياء والناس إلا بطريق الصدفة انها بشكل اساسي قوة سيطرة الانسان على ذاته ، والاتصال ب مصدر ما للقوة والمعنى والغاية في داخل العقل اللاواعي

أن القدرة على الإحساس بالاستثارة من خلال الآفاق التي لا نهاية لبعدها القدرة خاصية يتميز بها البشر ولا يوجد حيوان آخر يمتلكها انها نوع من بعد النظر الذهني يمكن أن يقارن بمنظار مقرب ذي عدستين ولقد نمينا هذه القدرة عبر عملية التطور والارتقاء التي استغرقت، مليونين من الأعوام وفي الوقت نفسه استبعدت ملكات اخرى وسقطت فريسة الاهمال وعدم الاستخدام منها على سبيل المثال غريزة الاهتداء الى البيت وفي كتاب ضرورات موزعة على الأجناس يكرس روبرت آردري ، المؤلف ، فصلا ممتعا لدراسة هذه الظاهرة لقد اكتشف عالم يدعى جوهان شميدت الحقيقة التي تقول بأن كل سمكة من نوع الجريث موجودة في العالم الغربي انما ولدت في بحر سارجاسو شرقي وسط المحيط الاطلنطي ففي الخريف ،

تشق اسماك الجريث الموجودة في اوروبا وشرقي امريكا طريقها هابطة كل الأنهار حتى تنتهي الى بحر سارجاسو ، فيما بين جزر الهند الغربية وجزر الأزور وفي الربيع التالي ، تشق سمكات الجريث الصغيرة ، التي ولدت في البحر ، طريقها عائدة الى المياه العذبة ، وبعد سنتين ، وحينما يصيح طولها بوصتين ، تعود السمكات التي اكملت دورة نموها الى البيت وحدها، اما الأسماك من ذوات السلسلة الفقرية المكونة من ١١٠ فقرة ، فتعود الي اوروبا ، ولكن الأخرى ، من ذات السلسلة الفقرية المكونة من ١ - ٧ فقرات فتسبح عائدة غربا الى امريكا اما الآباء والأمهات ، فيبقون في البحر لكي يموتوا وتقدم سلحفاة الماء الخضراء التي تقطن البحر الكاريبي عملا استعراضيا مشابها ، بسباحتها ١٥٠٠ ميل من البرازيل اني جزيرة اسينسيون في وسط الاطلنطي في اوان التزاوج ووضع البيض اما فأر الظبي الضئيل في صحراء ويو مينخ بالولايات المتحدة ، الذي لا يزيد حجمه على حجم طرف اصبع الانسان، فيمكن نقله إلى مسافة ميل بعيدا عن بيته ، وهي مسافة تساوي مئة ميل قياسا إلى حجم الإنسان ، فيستطيع ان يعثر على طريق العودة فورا ودون ادنى احتمال للخطأ إلى مساحة الخمسين ياردة المربعة التي تكون وطنه لا يبرحها راضيا طوال حياته اما الحمام الزاجل فيستطيع ان يعود الى مقره على بعد مئات الأميال وكان المعتقد قديما أن هذا لا يتحقق الا نتيجة لجهد شاق يبذله انسان في تدريب الطائر ، حتى اكتشف شخص ما، مصادفة، أن الحمائم الصغيرة، التي ما كادت تتعلم الطيران ، يمكنها ايضا ان تعود الى موطنها الأصلي ، وبيتها ، دون احتمال للخطا تماما مثل الحمائم الكبيرة ودون أي تدريب ، بل أنها غالبا ما تصل الى البيت في وقت اسرع من الكبار المدربين وفي حالات قليلة ،

كان العلم قادرا على تفسير غريزة الاهتداء الى البيت ويذكر فيتوس بادر ونشر بعض الأمثلة في كتابه حواس غامضة فالطائر المسمى ذا القبعة السوداء يطير مهتديا بالنجوم - على حد اكتشاف الدكتور فزانر سوير ، بأن وضع بعضا من هذا الطائر في قبة سماوية صناعية اما اسماك السالمون - وفي هذا ما فيه من غرابة– ان تهتدي بواسطة حاسة شم بالغة التطور وربما كانت اسماك الجريث تفعل الشيء نفسه ، رغم أن هذا لا يفسر كيف تعرف سمكات الجريث المولودة في عرض المحيط ان تشق طريق عودتها الى انهار لم ترها من قبل ابدا اما النحل والنمل فتهتدي بالشمس ويظن عالم من علماء جامعة كمبريدج أن الحمام الزاجل يهتدي بالحصول عن طريق الشمس على قراءة لموقعه من خطوط الطول والعرض ثم يقارنها بخطوط طول وعرض موقع بيوتها

وهكذا ربما لم تكن هناك حاجة لفرض نوع من الحاسة السادسة الغامضة تهتدي بواسطتها الحيوانات إلى بيوتها ولا شك أن هناك على الدوام تفسيرات طبيعية ولكن في بعض الحالات ، سيصبح من الصعب أن تتخيل ما تكون تلك التفسيرات الطبيعية لقد أخذ علماء من جامعة ويلهلم بشانن بعض القطط ، مخبأة في حقيبة مغلفة ، في جولة طويلة بالسيارة حول المدينة ثم اطلق سراح القطط فجأة في ساحة ذات اربعة وعشرين مخرجا واستطاعت معظم القطط أن تتجه مباشرة ودون تردد الى المخرج الذي يقع في اتجاه بيتها وقد اكتشف عالم حيوان الماني اسمه هانز ف روم أن غريزة الاهتداء عند طائر ابي الحناء تقع فريسة للارتباك والتشوش حينما توضع الطيور داخل حجرة مصنوعة من الحديد، والتفسير هو أن طيور ابي الحناء تهتدي في طيرانها عن طريق حساسية معينة ازاء ذبذبات كهرومغناطيسية ،

والافتراض الشائع هو أن تلك الذبذبات تنبع من سديم المجرة والطريق اللبني لكن ليس هذا اكثر من تخمين غير يقينى ولكن ، حتى ولو امكن اثبات ذلك بطريقة قاطعة ، فهل يشكل ذلك حقا تفسيرا لغريزة الاهتداء الى البيت ؟ اننا نتعامل في هذا الصدد مع درجات من الحساسية بعيدة بعدا شاسعا عن تصوراتنا ومدركاتنا الانسانية، وهي مدركات وتصورات تعتقد ان هذه الأنواع من الحساسية، مهما كانت وظائفها او اغراضها، انواع جديدة من الحواس او انها بالأحرى ، حواس قديمة لا بد انه كان هناك زمن تمتع فيه البشر بغريزة اهتداء إلى البيت ذات كفاءة مماثلة ، ذلك ان اسلافنا البدائيين كانوا يبحثون عن طعامهم في غابات هائلة شاسعة او في سهوب لا معالم لها بل أن هناك سببا اكبر من هذا الافتراض ان الإنسان قد امتلك ذات مرة حاسة متطورة تطورا غير عادي ، وظيفتها هي التنبؤ بالخطر ، والا لكان أسلافنا الأوائل قد ابيدوا عن بكرة أبيهم في ادغال العصر البليوسيني الهائلة منذ أكثر من خمسة ملايين من الأعوام ، حينما كانوا يكافحون من اجل البقاء ، ضد مخلوقات اكثر منهم تخصصا في كل مجال وبكل طريقة ولم يعد الانسان بحاجة الى استخدام الكثير من الغرائز للاهتداء الى البيت او لهواجس التحذير من الخطر لقد سقطت هذه الملكات فريسة لعدم الاستخدام والاهمال ولكنها لم تختف اختفاء تاما اذ يتضح الكثير من الأدلة على انه في الظروف التي تشتد فيها ضرورة تلك الملكات ، فانها تصبح فعالة قادرة على القيام بوظيفتها كما كانت في البداية فكل من قرأ الكتب العديدة التي كتبها جيم كوربيت ، مؤلف اكلة الانسان في كوماون سوف يتذكرون عددا من المناسبات انقذتهم فيها حاستهم السادسة

يكفينا هنا مثال واحد ففي كتاب معرفة الخبرة بالادغال يصف كوربيت كيف كان يهم بالاستحمام ذات مساء حينما لاحظ أن قدميه يغطيهما تراب احمر اللون كان هناك مكان في طريق عودته الى البيت ، حيث كان لا بد قد سار عبر التراب الاحمر ولكنه لم يستطع أن يتذكر اي سبب ربما يكون قد دفعه الى ان يسير عبر هذا المكان غير انه عاد فتذكر الظروف في مناسبة اخرى كان قد سار حتى وصل الى دغلة من الحشائش يبلغ طولها حوالي ثماني عشرة بوصة وحينما اقترب من هذه الدغلة ، راح يعبر الطريق الى الجانب الآخر ، فسار عبر التراب الأحمر على الجانب الآخر من الطريق كان قد عبر الطريق الى الجانب الأيمن ، ثم عاد فعبره الى الجانب الأيسر مرة اخرى وهو مستمر في سيره عائدا إلى البيت وكان كوربيت قد اخذته الحيرة لم يستطع أن يتخيل السبب الذي جعله يعبر الطريق وهو غائب عن الوعي بهذا الشكل وفي اليوم التالي عاد فاقتفى آثار خطواته وعلى ارض الدغلة المتربة ، على الجانب الأيسر من الطريق ، اكتشف آثار نمر - ببطنه ومخالبه - كان راقدا في وسط الحشائش لم تكن لدى النمر نية قتلي ، ولكن لو انني في لحظة عبوري به قد توقفت لكي اصغي لاي صوت من اصوات الادغال ،او لو انني سعلت او عطست او نفخت انفي ، او حركت بندقيتي من كتف الى كتف، لكانت هناك فرصة لاستثارة اعصاب النمر ولكان قد هاجمني ان اللاوعي عندي اذ لم يكن متهيئا لتقبل تلك المخاطرة - بالاضافة الى حساسية الادغال ، قد هبا لمساعدتي ، فأرشداني الى الطريق بعيدا عن الخطر المحتمل فكيف نفسر حساسية كوربيت ازاء الادغال ؟ هل باعتبارها حاسة سادسة ؟

ام نفسرها ببساطة باعتبارها شكلاما من اشكال الملاحظة غير الواعية ؟ انني اميل الى القول بأنه لا يوجد بينهما فرق حقيقي وحينما يستنتج شرلوك هولمز آن واطسون قد ارسل برقية بسبب ملاحظته للطين العالق بحذائه وبقعة الحبر على اصبعه ، فان هذا بوضوح،هو ما نعنيه بالتفكير العلمي المنطقي ومن المحتمل أن الاسباب التي دفعت كوربيت الى عبور الطريق كانت منطقية بنفس القدر ، رغم كونها كامنة في اللاوعي فربما كان - قبل ساعة من شروعه في العودة إلى البيت ، قد سمع صوت النمر ، فسجل ذهنه دون وعي اتجاه مسار الصوت فاذا اضيفت بعض العلامات الصغيرة الأخرى - مثل غياب الطيور بالقرب من الدغلة ، وغصن شجرة مكسور - يكون عقله اللاواعي قد وصل بالفعل الى استنتاجاته بافضل شكل من اشكال طريقة هولمز ولكن اذا كان كوربيت قد ظل غير مدرك في وعي لكل هذا ، اذن لكنا نتعامل مع ملكة ربما يكون اسمها هو الحاسة السادسة، وهي ملكة غير واعية ، ستكون قدراتنا على الملاحظة الواعية بالمقارنة بها قدرات غليظة خالية من الدقة اننا قد نجد صعوبة في فهم ذلك لاننا نستخدم عقلنا الواعي باعتباره أداة التعلم ان قيادة سيارتي قد اصبح أمرا طبيعيا بالنسبة لي حتى اصبح من الممكن تقريبا أن ندعي عملا غريزيا، ولكن كان علي ان اتعلم القيام به بشكل واع اولا ولكن من الواضح انه سيكون من السخف ان نفترض ان الحمائم قد تعلمت الاهتداء في طيرانها بالشمس بالطريقة نفسها لم تكن هناك في هذه الحالة عملية تعلم واعية ، وانما تمت كلها على المستوى الغريزي

اننا قد نكون قادرين على تفسير غريزة اهتداء الحمائم الى بيوتها مصطلحات يستطيع شرلوك هولمز أن يفهمها الا انه من المهم أن نتبين ان العقل اللاواعي يعمل بسرعة ودقة لا يستطيع وعينا أن يدرك منهما شيئا، وان عقلنا اللاواعي ربما يكون يعمل مستخدما نوعا من المعلومات اكثر دقة ورهانا من ان تدركه حواسنا الغليظة كيف على سبيل المثال نفسر قدرة الكاشف عن مكامن الماء بالعصا ؟ لقد رأيت رجلا يمسك في يده غصنا جانا وهو يسير حول الحقل الذي شيد منزلنا في وسطه ، مقتفيا مسار نبع خفي تحت الأرض، فيميزه بوضوح ، ويميز بينه وبين انبوب ماء ممتد مدفون وقد عدنا بعد هذا الي خرائط المنزل ، فوجدنا انه كان دقيقا دقة كاملة فيما يتعلق بانبوب الماء وقد انكر الرجل اقتراحا بان ملكته كانت ملكة فوق طبيعية واصر على انه يستطيع أن يعلم أي شخص كيف يكشف عن مكامن الماء بالعصا في اقل من ساعة وقال: كل انسان يمتلك هذه الملكة ، وهي ليست الا الحاسة السادسة كتمرين وعلى قدر ما أعلم فانه لا يوجد عالم واحد حاول ان يفسر قدرة الكاشف عن مكامن الماء، رغم أن هذه القدرة تعد شيئا عاديا وشائعا في اي اقليم ريفي وحينما يتم ادراكها في النهاية فانها سوف تتكشف لاشك عن شيء بسيط ومذهل مثل حاسة الشم عند اسماك السالمون ، او حساسية فأر الظبي الصغير ازاء الاشعاعات النجمية ليست هناك حاجة الى ان نضع خطا مميزا حادا بين الإحساس العادي العلمي ، وبين القدرات التي يمكن ان تكون قد صنفت ذات مرة فوضعت بين القدرات السحرية ففي المملكة الحيوانية ليست القدرات السحرية سوى قدرات عادية شائعة أما الإنسان المتحضر فقد نسي كل شيء عن هذه القدرات لانها لم تعد ضرورية لبقائه او لمواجهته للحياة

وفي الحق، فان بقاءه يعتمد على نسيانها فان التطور الرفيع المستويات الغريزية لا يتفق مع نوع التركيز على التفاصيل الذي احتاجه الانسان المتحضر وهناك تصوير لذلك في الترجمة الذاتية التي كتبها العراف بيتر فان دير هيرك ، المشهور باسم بيتر هيركوس ففي عام ١٩٩٣ كان هيركوس يعمل نقاشا في طلاء المنازل ، حينما سقط من فوق السلم المرتفع فانكسرت بعض عظام جمجمته وحينما استيقظ أو افاق ، في مستشفي زويدو ول في مدينة لاهاي - اكتشف انه قد اصبح يمتلك نوعا من البصيرة أو القدرة على رؤية الأشياء الخفية واستبصارها لقد عرف اشياء عن رفاقه من المرضى دون ان يقول له احد شيئا عنها وقد كاد هذا أن يكلفه حياته ذات مرة فلاذ كان يصافح مريضا على وشك الخروج من المستشفى عرف فجأة أن الرجل عميل بريطاني ، وانه سوف يغتال بايدي الجستابو في خلال يومين ونتيجة لتنبؤه، كاد رجال المقاومة الهولنديون أن يعدموه بتهمة الخيانة ، ولكنه كان قادرا لحسن الحظ على ان يقنعهم بأن عرافته او قدرته على معرفة الأشياء الخفية ، هي مقدرة حقيقية ولكن نقطة القصور الأساسية في هذه القدرة غير العادية كانت هي انه لم يعد قادرا على العودة إلى عمله القديم كنقاش يطلي المنازل ، كان قد فقد القدرة على التركيز لم يكن بوسعي ان اركز على أي شيء في تلك الأيام ففي كل لحظة كنت ابدا فيها أي حديث طويل مع اي شخص ، كانت تلوح لي رؤى مختلفة من جوانب متنوعة من حياته وحياة افراد اسرته واصدقائه كان عقله مثل جهاز مذياع يلتقط محطات متنوعة عديدة في لحظة واحدة ومن وجهة النظر الاجتماعية كان قد اصبح لا نفع فيه حتى ادرك فكرة استخدام قدراته الغريبة على المسرح مرة أخرى ، ليس لدي العلم بما يقوله عن قدرات بيتر هيركوس ،

ولا عن قدرات مواطنه الهولندي جيرارد كرواسيت ، رغم أن تلك القدرات قد تم اختبارها في المعمل واكتشفت حقيقيتها واصالتها أن التنبؤ بالمستقبل ، اوحل جريمة قتل بعد مجرد الامساك بقطعة من ثياب الضحية وفحصها ، هي أمور من الواضح انها تختلف عن حساسية كوربيت ازاء الادغال وعن غريزة الإهتداء الى البيت ولكن قد يكون مما يستحق ان نتذكره انه حتى منتصف خمسينات هذا القرن - ظلت ملاحظات شميدت عن اسماك الجريث - وكانت قد نشرت منذ عام ١٩٢٢ - ظلت موضع التجاهل من جانب العلماء لانها عجزت عن الدخول في سياق اي تفسير ويلاحظ آردري ان حكاية اسماك الجريث قد وضعت في خانة واحدة مع اكذوبة هتلر الكبرى وهذا يعني ان احدا لم يكن راغبا في معالجة المشكلة حتى بلغ العلم مرحلة اصبح عاجزا عن التقدم بعدها دون ان يضع تلك المشكلة في اعتباره ولا شك أن الشيء نفسه سوف يحدث للملاحظات التي سجلت عن هيركوس عن طريق معهد المائدة المستديرة و في مدينة مين ، وللملاحظات التي سجلت عن كرواسيت عن طريق معهد الدراسات السيكولوجية التابع لجامعة اوترخت

من الضروري عند هذه النقطة ان نقول شيئا عن مسار عملية التطور والارتقاء في خلال المليونين الماضيين من السنين فمنذ احد عشر مليونا من الأعوام حدث فيما يبدو أن قردا من فصيلة تدعي رامابثيكوس قد استطاع أن بطور قدرته على المشي منتصب القامة وبدا يفضل السير على الأرض بدلا من القفز على الاشجار وفي خلال الملايين التسعة التالية من السنين استقر بثبات ميله الي السير منتصب القامة ، وتحولت فصيلة رامابيشيكوس الى فصيلة اوسترالو بيثيكوس ، وهو اول اسلافنا البشريين فما هو الفرق الذي صنعه وضع انتصاب القامة ؟ اول كل شيء ، لقد حرر هذا الوضع يديه ،

حتى اصبح بوسعه أن يدافع عن نفسه مستخدما كتلة صخر او فرع شجرة وثانيا ، وسع هذا الوضع أفق رؤيته وعلى قدر ما اعلم ، لم ينظر واحد من علماء الأنتروبولوجيا الى هذه النقطة باعتبارها نقطة لها مغزاها ربما لان هناك عددا كبيرا من المخلوقات اكثر طولا من الإنسان ، ولكن عيون الفيل والزرافة تقع على جانبي راسيهما، ولذلك فان افق رؤيتهما دائري اما القرد فينظر الى ما امامه مباشرة ، أن رؤيته اضيق ولكنها اكثر تركيزا ايمكن ان يكون هذا هو ما جعل القردة تتطور وترتقي اكثر من اي حيوان اخر ؟ أن الرؤية الضيقة تؤدي الي الضجر ، وهي تؤدي ايضا الى نشاط عقلي متزايد ، تؤدي الى الفضول وحينما تطورت القدرة على الابتكار وتطور الفضول الى درجة معقولة ، تعلمت فصيلة بعينها من فصائل القردة ان تسير منتصبة القامة ، وبذلك امتد افق رؤية أفرادها

بطريقة مختلفة ان الرؤية الى مسافة بعيدة تعني تعلم التفكير على اساس المسافات البعيدة ، تعني تعلم الحساب وتحسب الأمور ان قدرة الإنسان على السير منتصب القامة وعلى استخدام يديه ؛ وقدرته الطبيعية على ان ينظر الى البعد بدلا من النظر الى الارض ، هذه القدرات اصبحت اسلحة تساعده على البقاء لقد طور الانسان ذكاءه لانه كان الوسيلة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة وهكذا ، ففي بداية الارتقاء البشري ، كان الانسان مرغما علي الاستفادة من قدرته على تركيز انتباهه على الأشياء والجزئيات الدقيقة ولا شك أنه كان يفضل لو اكل غذاءه ثم نام في الشمس ، مثلما كان يفعل النمر الهائل سيفية الاسنان او فرس النهر ،

ولكنه كان أعزل عاجزا عن الدفاع عن نفسه اكثر منهما لكان عليه أن يحافظ دائما على يقظته وحذره وعلى مسار الزمن ، أصبحت هذه القدرة على تركيز انتباهه وعلى الحساب والتحسب قدرة من القدرات الطبيعية حتى ان التفكير اصبح واحدا من نشاطات الانسان العفوية وقد اثمرت هذه القدرة الى درجة لا تصدق ففي بضعة آلاف قليلة من السنين ، ارتقى الإنسان اكثر بكثير مما استطاعت الزواحف الهائلة أن ترتقي في ملايين عديدة من الأعوام لقد خلق الحضارة ، وبخلقه لها ، دخل مرحلة جديدة من مراحل ادراك الذات - وهي المرحلة التي يدخلها الأطفال من البشر الآن في سن السادسة او السابعة

وتسبب الوعي بالذات في خسائر فادحة وجلب مكاسب كبيرة وكانت أفدح الخسائر هي الطبيعية الغريزية التي يمتلكها الأطفال الصغار والحيوانات ولكن الكسب الحيوي الأساسي هو الاحساس بالقوة والسطوة والقدرة على السيطرة لقد اصبح الانسان هو الحيوان ذو الارادة ، اكثر الحيوانات خطرا على الأرض ، لم يقنع ابدا بأن يعيش في سلام لمدة طويلة ، دؤوبا على غزو البلدان المجاورة ، مشعلا النار في القرى ومغتصبا ما يجده من النساء ، وقد تسبب هذا الدافع الاناني اللانهائي - خلال العشرة آلاف سنة الماضية - في فصله اكثر واكثر عن القردة في غاباتها الكثيفة الرطبة وعن طيور عصفور الجنة التي تطير الى الجنوب في الشتاء وانه ليس سعيدا سعادة كاملة بهذه الحضارة التي خلقتها قدراته المتميزة والمشكلة الرئيسية بشأنها هي انها تحتاج الى الكثير جدا من الجهد من اجل تحقيقها

والعثور عليها كثير من الناس يمتلكون تفضيل الحيوانات للحياة الغريزية في التوحد مع الطبيعة ، انهم يحلمون بمتعة أن يكون المرء راعيا يغالبه النوم على سفح تل مشمس او صائد سمك بالصنارة يلقي خيوطه في نهير صغير ومن الغريب تماما أن مثل هؤلاء الرجال لم يدانوا ابدا بوصفهم كسالى او فاقدي الهمة ، انهم ينالون الاحترام بوصفهم شعراء ،ويستمتع الجنود ورجال الأعمال بقراءة احلام يقظتهم حينما ينتهي عملهم اليومي

ان الشاعر ببساطة هو الرجل الذي ما تزال روابطه بماضينا الحيواني قوية انه واع بان كياننا يتضمن مجموعة من القدرات الغريزية منفصلة تماما عن القدرات التي نحتاجها لكي تفوز بمعركة او نوسع مجال عمل ما وهو يعني بصورة غريزية بشيء اكثر اهمية بكثير لقد طور الانسان قدراته الواعية ببساطة لانه اراد ان يطورها لقد انتقل من ابتكار العجلة الي ارتيساد الفضاء وكشفه في بضع خطوات قليلة سريعة ولكنه ايضا قد فاق الحيوانات في جانب اخر : في تطور القدرات الاخرى فليس ثمة حيوان قادر على الحصول على نشوة واحدة او حالة من حالات الوجد التي يصل اليها الصوفيون او الشعراء العظام آن ووردزورث في شعره عن الطبيعة يصبح

في حالة اتحاد مع الطبيعة بمعنى مختلف كل الاختلاف عن فرس النهر الذي يغفو نائما في الطين ان الوعي بالذات يمكن أن يستخدم لتطوير قدرات الإنسان الغريزية، مثلما يمكن أن يستخدم لتطوير قدرات الذهن ان الشاعر والصوفي والساحر يشتركون جميعا في شيء واحد : الرغبة في تطوير قدراتهم في اتجاه سفلي بدلا من تطويرها الى اعلى وفي محاورة المادية يعبر سقراط عن هذا الهدف المثالي : القيام بالعملين في وقت واحد ـ استخدام المعرفة المتزايدة

من اجل الوصول او الامتداد الى الخارج نحو حالة من الاتحاد الغريزي مع الكون وفي خلال الفين نصف الالف من الأعوام منذ ذلك الحين ، اضطرت الحضارة الى ان تكرس انتباهها للمشاكل اكثر عملية ، بينما داب الفنانون والمتصوفة على الاحتجاج بأن العالم اكثر بكثير مما نحتمل وان الجنس البشري المنتصر ، لا يزيد الا قليلا عن قزم ماهرفاذا كان للانسمان حقا ان يرتقي ، فان عليه أن يتطور عمقا وان يطور سيطرته على اعماقه الخاصة والآن ، ولاول مرة في التاريخ القصير لجنسنا البشري ، فان نسبة كبيرة من هذا الجنس تمتلك رفاهية نسيان المشاكل العملية وفي امريكا واوروبا هناك تزايد يسير بخطى متقاربة ، في الاهتمام بالعقاقير المحولة للعقل وفي علوم الغيب ان التعلق الشديد بالامور النفسية يختلف عن انواع التعلق بالعقاقير المختلفة التي كانت دائمة في اوائل القرن العشرين ، بل يختلف ان ادمان شرب صبغة الأنيون التي عرفت عن دي كوينسي وبالطريقة نفسها ، فان تفضيل اوربنسكي لان يقرأ كتابا عن السحر بدلا من كتابة مقال عن مؤتمر لاهاي ، يشير الى شيء اكثر ايجابية من الامتعاض من السياسة في سن الرابعة عشرة، غرق اوزبنسكي في حالة من الاستثارة لنشوة من خلال كتاب في الطبيعيات ، لانه كان اتصالا مع عالم الأشياء غير الشخصية ولكن في العلم يمثل طريقا مسدودا بالنسبة لشاب خيالي ، فهو لا يريد أن ينتهي الى حقن الخنازير الفينية بانعقاقير في معامل التجريب البافلو في كان يتملكه شعور بأن كل طرق الحياة التي عرضها عليه العالم الحديث قد وجهته الى الاتجاه المعاكس للطريق اراد ان يسير فيه في لحظات الكآبة والانقباض : كان ميالا الى ان لم يكن هذا الاشتياق الى الآفاق البعيدة نوعا من الأوهام الغريبة ، شيئا يشبه رغبة فراشة النار في الوصول الى النجوم ولكن غريزة ما تدفعه إلى البحث باصرار في كتب تتحدث في السحر وفي علوم الغيب ،

وفيما بعد، تدفعه الرغبة نفسها الى التجول في الشرق ، باحثا في الأديرة عن المعرفة السرية ومن المصادفات الساخرة، انه لم يقدر له أن يكتشف ما كان يبحث عنه ، الا بعد أن عاد الى موسكو وقابل جوردييف درا أن هذا الإحساس بالمعاني ، الذي لا يبدو واضحا بالنسبة للنوع العادي من الوعي ، انما يمارسه كل انسان في وقت أو آخر وقد يتجاهل المرء مثل هذه الاشارات البارقة العارضة طوال سنوات ، حتى بدفعها حادث ما الى بؤرة الانتباه ومركزه ، او ربما يحدث هذا التبئير بالتركيز ودون أن يتنبه له الانسان أو يدركه يقول العلم ان الحياة بدات من خلال فعل ضوء الشمس في الكربون الممتزج بالماء ، وأن الإنسان قد بلغ وضعه الحالي من خلال سلسلة طويلة من عمليات الانتخاب الطبيعي وفي هذه الحالة ، فان قوانين الوجود الإنساني هي قوانين مادية ، ويمكن العثور عليها في اي مرجع من مراجع العلم ولكن ثمة تحفظات من اليقين العبثي السخيف ، يبدو كما لو كان مستمدا من قانون الاحتمالات العادي ان مارك بريدين ، وهو عازف موسيقي اعرفه ، قد وصف لى كيف خرج من احدى تجارب متأخرا جدا ذات ليلة فاستقل سيارة اجرة الي البيت كان الإجهاد قد بلغ منه مبلغه ، ولم يكن هناك سوى عدد قليل من السيارات العابرة على طريق بايز وو تر رود وفجأة ، وفي يقين كامل ، بينما كانت السيارة تعبر شارع كوينز واي ، عرف ان سيارة اجرة اخرى سوف تمرق بسرعة عبر الطريق وسوف تصطدم بسيارته ، كان واثقا لدرجة انه شعر بما يغريه بأن يحذر السائق ،

ثم قرر ان نصيحته هذه ستبدو نوعا من البلاهة وبعد ثوان قليلة ، انطلقت سيارة الأجرة الأخرى التي كان يتوقعها خارجة من شارع كوينز واي وصدمته سيارته ، تماما مثلما كان قد عرف انه سوف يحدث ، وارجع هو تلك الومضة من الحاسة السادسة الى الاجهاد البالغ ، حينما كان عقله الواعي قد استرخي تماما واصبح بوسع اللاوعي أن يسمعه صوته

اننا قد نرفض القصة كنوع من المبالغة ، او نفسرها باعتبارها صورة من صور المصادفة ولكن كلمة المعارف لا تحل شيئا من هذه المشكلة وذلك ان كل انسان - واكرر هذا مرة ثانية - قد لاحظ كيف يتكرر وقوع المصادفات الخالية من المعنى وقد حدث منذ بضعة سنوات ان حاولت المداومة على تسجيل مذكراتي عن المصادفات غير المتوقعة ، وانني اجد الآن مثالا نموذجيا متطابقا مع المثال السابق في مذكرتي في شهر يناير ١٩٩٨ كتبت حينذاك قائلا : كنت اقرا كتاب هوكينز حل شفرة النصب الحجرية ، وكان الفصل الأخير يتحدث عن الأحجار الضخمة المنتصبة في كاللانيش ، التي يصفها هوكينز بأنها نوع من الآلة الحاسبة في العصر الحجري انهيت الكتاب ، والتقطت على الفور كتاب بيل : الرياضيات ، ملكة العلوم ، وانفتح الكتاب بين يدي عند الفصل السادس فوجدت نفسي انظر الى هامش في اسفل الصفحة يتحدث عن رياضيات العصر الحجري كانت فرصة مصادفة هذا الهامش ، بعد فراغي على الفور من قراءة الفصل المكتوب عن كاللانيش ، لا تعدو نسبتها واحدا في المليون وحدث الشيء نفسه مرة اخرى في الليلة الماضية حينما كنت اقرا تقريرا عن جريمة قتل دومينيك في بلدة موهير بمقاطعة جالاواي ولاحظت ان الضحية كانت تدرس في كلية ماري واشنطون بمدينة فريدريكسبرج بولاية فرجينيا ،

حيث كنت قد القيت محاضرة منذ مدة وجيزة وبعد عشر دقائق فتحت كتاب الملخصات التي وضعها واندا اورينسكي لاعمال هيجل ، فرايت ان المقدمة كانت بقلم كيرتوليديكر من كلية ماري واشنطون ليس هناك ما يسبب ازعاج شديد في هذه المصادفات باستثناء كثرة احتمالات عدم حدوثها او حدوث ما يناقضها ويمكنني ان اضيف مثالا آخر من الاسبوع الماضي فقد اشارت مقالة منشورة في مجلة عالم الإجرام الى قضية جريمة القتل في نبراسكا دون ذكر اسم القاتل ، وانفقت عشر دقائق في البحث في كومة من اعداد قديمة من مجلة الشرطي السري الحقيقي لانني كنت قادرا على ان اتذكر أن الرجل الذي كنت احاول ان اذكر اسمه تشارلز شتار كويذر كان قد نشرت صورته على غلاف احدها اخذت المجلة وعدت لكي اجلس على مقعدي وانتهيت من المقالة في عانم الاجرام وانتهت المقالة باشارة الى قاتلة تدعى ناني دوس ، لم اكن قد سمعت عنها ابدا وبعد نصف ساعة فتحت مجلة الشرطي السري الحقيقي فاكتشفت ان المقالة الأولى فيها كانت عن ناني دوس ومن الغريب تماما ، انني اذ كنت انظر الى صورتها، واقرا ما تحتها من تعليق فم كلمة ناني ، شعرت باحساس مفاجيء من اليقين الكامل بان هذه كانت هي المراة التي كنت اتساءل عنها رغم انني احتجت الى بضع ثوان اخرى لكي اعثر على اسمها الثاني في النص وقد وصفت معماد فات مشابهة في كتاب بارز هو المتطهرون والتناسخ من تاليف آرثر جويردهام انه يتمنا كيف شرع ذات يوم من عام ١٩٦٣ في مناقشة امر قرية تدعى ليتل جادسكن فحاول ان يتذكر اسم حانة هناك وفي وقت تال من اليوم نفسه ، تناول كتاب عن جبال البيرنيز في المكتبة العامة واخذه معه ، وحينما بدا يقرؤه في البيت

: حدث على الفور تقريبا ان التقى باسم قرية ليتل جاد سدن واسم الحانة الني اراد ان يتذكر اسمها من قبل وقد وقعت هذه المصادفة وهي واحدة من مصادفات كثيرة في بداية انشغاله الغريب بمريض كانت ذكرياته عن وجود سابق واحدة من أفضل حالات التناسخ التي قابلتني توثيقا واثباتاان القول بأن مثل تلك الأمور ليست مصادفات بصورة كاملة ليس هو القول بأن القوى الخفية كانت تحاول أن تجذب انتباهي الي رياضيات العصر الحجري او كانت تحاول ان تجذب انتباه جوبردهام الى اسم الحانة ربما كان كل ذلك في التطبيق نوعا من الحاسة الحيوية تنتمي الى النوع نفسه الذي تنتمي اليه غريزة الاهتداء الى البيت عند اسماك الجريث وكلما زاد انغماس العقل واهتمامه بموضوع ما ، كلما زاد فيما يبدو حدوث تلك المصادفات النافعة، كما لو كان للعقل الصحيح نوع من اجهزة الرادار ان التشويش او الانقباض سيمنعان جهاز الرادار من العمل ، أو قد يمنعان المرء من تركيز انتباهه بعد فوات الوقت وفيما يلي سطور مأخوذة من تقرير كتب حديثا عن جريمة قتل، كتبه والد الضحية :كان يوما عاصفا هبت فيه ريح باردة وتغير الطقس فيه اكثر من مرة بين سطوع الشمس وبين رخات المطر المفاجئة أو هبات الرياح الممطرة كنت انا وزوجتي عند باب المنزل الامامي ، في لحظة حين هبتين مطيرتين من الرياح ، وكنا نقف مع عاملين من عمال الطلاء كانا يحاولان انجاز عملهما في هذا الجو بطلاء حواف الجدران واطر النوافذ وكان من الضروري أن نقلم اغصان شجرة باسقة امام احدى الغرف وفي الساعة الرابعة بعد الظهر ، قالت زوجتي : اين فيونا ؟ ودون سبب معقول واضح ، ودون حسبان ، شعرنا كلانا باحساس غامر من القلق الحاد والخوف •

حتى جاءت اللحظة التي ذكرت فيها الطفلة كان الوالدان مشغولين باشياء اخرى ، ولم يلاحظ أي منهما اشارات اللاوعي المنذرة بالخطر وحينما سالت الام اين فيونا ؟ سمعت هذه الإشارات بوضوح ، مثل صوت التليفون الذي لا يمكن ان يسمع الا اذا اطفيء التليفزيون وقد كانت الطفلة ضحية القاتل جنسي دا

ان تجربتي الخاصة في مجال النذر المنبئة بالخطر لم تكن شديدة الاتساع ، والحق انه لا يمكنني أن أتذكر سوى تجربة واحدة ففي يوم ١٩ يوليو من عام ١٩٩٤ ، نظرت في كفي قارئة كف عادية في احدى الاسواق بمدينة بلاك بول ، وحذرتني من انه ستقع لي حادثة في غضون الشهر التالي ، وانني لن اصاب اصابة سيئة وفي منتصف أغسطس من نفس العام قررت ان اصطحب ضيفا في رحلة بقارب بخاري سريع ، رغم احساسي الشديد المنبيء باحتمال تعرضي للخطر وثبت لي أن البحر كان اكثر خشونة مما كنت اتوقع ، وحينما حاولت ان ارسو بالقارب على شاطىء صخري ، أغرقت القارب تماما ، ولم يصب احد منا ، رغم اننا انفقنا نصف ساعة سيئة في محاولة جر القارب المثقوب من مياه البحر الهائج وقد مررت بتجربتين من الاستجابة التليبائية الواضحة مع شخص آخر فقد كنت انفصلت عن زوجتي الاولى لبضعة شهور من صيف عام ١٩٥٣ ، رغم انه كانت ما تزال بيننا وشائج عاطفية قوية وذات مساء ، في مقهى في وسط لندن ، شعرت فجاة بالغثيان ، وكان علي ان اهرع إلى الخارج واستمرت حالة القيء لعدة ساعات وقد استمرت في الحقيقة حتى الساعات الأولى من الصباح التالي وقال طبيب في المستشفى الذي كنت اعمل فيه في ذلك الوقت ، مشخصا الحالة ، بانها كانت حالة تسمم غذائي ،

رغم انني كنت قد تناولت الطعام نفسه الذي تناوله العمال الآخرون في المستشفى ، وكانوا جميعا في حالة جيدة تماما ومع ذلك ، فقد عرفت بعد ذلك بعدة ايام ان زوجتي كانت تعاني من حالة تسمم غذائي ، بعد أن تناولت علبة فاسدة من لحم البقر المحفوظ في الوقت نفسه الذي كنت انا اتقيأ فيه ، وكانت هي قد بدأت تتقيا ثم خفت حالتها في الوقت نفسه الذي انتابتني فيه أنا هذه الحالة وفي عام ١٩٥٦ كنت قد القيت محاضرة في جامعة سانت آندروز في اسكتلندا، وكنت اقود سيارتي الى بلدة سكاي كنت اشعر بابتهاج غامر واضح حينما بدأت الرحلة لان الطقس كان جميلا ، وكنت انتظر اللحظة التي سأتوقف فيها عند محل لبيع الكتب القديمة في بيرث ولكن بعد نصف ساعة من مغادرتي سانت آندروز بدأت اشعر بانقباض غير متوقع ولم اعرف له سببا واضحا وبعد نصف ساعة ، سألت زوجتي لماذا كانت تبدو مجهدة محزونة، فأجابتني بأنها كانت تعاني من الم في اسنانها مند غادرنا سانت اندروز ولسوء الحظ كان اليوم يوم سبت ، وقد تأخر الوقت جدا حتى كان من الصعب أن نعثر على طبيب اسنان في اسكتلندا كلها وفي صباح يوم الاحد ، كانت اللثة قد اصبحت متورمة بشكل سيىء واستمر انقباضي طوال اليوم وفي بلدة كيل بمقاطعة لوشالش ، قيل لنا صبيحة يوم الاثنين ان طبيب اسنان متجولا سوف يصل ضمن قافلة طبية في وقت ما من النهار تركت زوجتي تنتظر بينما اخذت ابنتي لنتجول في البلدة وفجأة ارتفع عني احساس الكآبة المقبضة قلت للفتاة : لقد خلعت امك ضرسها لتوها وعدنا في الوقت المناسب لكي نجد زوجتي وهي تخرج من سيارة القافلة ، بعد أن فقدت ضرس العقل التالف وحينما كان ابنائي رضعا، سرعان ما ادر كت وجود الروابط والاتصالات التلباثية فاذا اردت لابنتي ان تنام طول الليل ، كان علي ان احذر ان ارنسد مستيقظا افكر فيها

فاذا فعلت ذلك استيقظت هي على الفور اما ولدي فقد كان علي ان اتجنب حتى مجرد النظر اليه اذا كان نائما في مهده فاذا سالتني زوجتي أن القي عليه نظرة لكي ارى ان كان لا يزال نائما ، في الحديقة او نسي الشرفة، كان على ان اتسلل على أطراف اصابعي ، فأرمقه بنظرة سريعة ث استدير في لمحة خاطفة فلو اطلت نظري متلكئا وانا احدق فيه ، لفتح عينيه مستيقظا على الفور وقد حدث هذا في ظروف مختلفة كثيرة في العام الأول من عمره حتى اصبح علي ان اقبل المسالة باعتبارها شيئا طبيعيا وبعد العام الأول، بدت هذه الروابط التلباثية كما لو كانت تختفي ، او على الأقل تضعف ولكن حينما بدأ الطفلان يتعلمان الكلام، لاحظت ان هذه المسألة كانت عملية دقيقة تعتم على الحدس الى حد كبير - وليست على الإطلاق مسألة محاولة وخطاء مسألة تعلم الكلمات الأشياء وتركيب الجمل منها بربطها فيما بينهاولكنها مسالة من نوع يبلغ في تعقيده ما تبلغه القدرة التي تبنى بها الطيور اعشاشها ومرة اخرى انتابني احساس ربما كان وهما بان في وسع الطفل أن يلتقط افكاري وان يرددها، أو على الاقل ان يستجيب لها حينما يحاول أن يعبر عن شيء ما ولكن لابد بين البالغين على الاقل ان يكون انتقال الافكار اقل عادة من انتقال الأحاسيس ويبدو أن كليهما يعتمدان على توافر الظروف الصحيحة لقدر معين من السكينة والحساسية ففي يوم ساكن تستطيع احيانا ان تسمع اصوات الناس على بعد أميال في الأمثلة التي ذكرتها آنفا عن التلباثي - اذا كانت هذه من حالات التلبائي ، اي انتقال الأفكار والمشاعر دون اتصال مباشر - فان عملية الانتقال كانت غير واعية وآلية ، مثل تحويل خطوط التليفون ويبعث هذا على التأمل في احتمال أن تكون الكراهية قابلة للانتقال بنفس الطريقة غير الواعية

لقد كانت تجربتي الخاصة في هذا الشأن تجربة مشكوكا في امرها ، وانا لا اذكرها الا بهدف استكمال تلك التجارب الشخصية وقد اجد نفسي وانا افكر فيها بشكل جدي حينما اقرا الفقرة التالية من الكتاب الذي وضعه والسون نايت عن جون كاربر بويز : أن أولئك الذين تعرضوا لقضبه او استفزوه قد عانوا صورا مختلفة لسوء الحظ تقوم على نزوع عصابي الى فعل الخير خوفا من أن ينزل الأذى بأحد لمجرد أن يغضب منه ان طموح بويز المبكر الى أن يصبح ساحرا لم يكن حلما خاليا من المبررات قبل ان انتقل الى كينسينجتون في خريف عام ١٩٥٢ ، كنت انا وزوجتي قد عشنا في ويمبلدون ، في منزل رجل عجوز كان يعاني من الربو ، وكانت زوجتيي ممرضته وفي خلال الشهور الستة التي عشناها في المنزل ، كان قد اصبح اكثر ميلا للشجار وتزايدت صعوبة التعامل معه ، حتى أصبح يظلنا جو دائم من التوتر مثل الندر المتجمعة لعاصفة رعديةعاتية ولست ممن تحتبس الضغائن في صدورهم طويلا، ولكن احساسي بالغرق في الحقارة والتفاهة ، وبانني ممنوع غصبا من التركيز على الاهتمام بأشياء اكثر اهمية هذا الاحساس انتج لحظات حادة من البغض والكراهية للرجل حتي أتمنى له الموت و في شهر اغسطس عدنا إلى المنزل من عطلة نهاية احد الاسابيع ، لكي نجده قد مات اثر نوبة ولكن ، حينما تكرر الموقف بعد ثلاثة شهور ، وجدت نفسي اتأمل في وجوم فيما اذا كان يمكن للأفكار ان تقتل كانت مالكة المنزل كثيرة الشكوك الى درجة الجنون ، وسرعان ما أصبحت المواقف العنيفة من الوقائع اليومية الحدوث وبعد شهرين ، ذهبت الى طبيب فقال لها انها مصابة بسرطان في الرحم وماتت المراة بعد مدة قصيرة من مغادرتنا المنزل وانني لاتذكر الآن الطبيعة الفريدة لتلك النوبات المفاجئة من البغض والمقت الشديدين وفي بعض المناسبات ، تزايد الغضب

حتى وصل الى الدرجة التي قد يدفع عندها شخصا مصابة بمرض عصابي الى انفجار من العنف قاتل ومدمر ولكن الانفجار لدي كان عقليا خالصا : انفجار من السخط والكراهية ، يتلوه احساس بالارتياح الناتج عن التنفيس ، كما لو كنت قد قذفت قالب طوب على زجاج نافذة فحطمته وتتميز تلك الانفجارات العقلية دائما باحساس غريب فريد بالصحة والاصالة ، وبالحقيقة واعني بهذا انها تبدو بشكل ما مختلفة عن نوبات الاحساس الذي يولده الخيال ولا يمكنني ان احدد هذه الفكرة اكثر من هذا ، ولكنني أظن ان اكثر الناس قد خبروا هذا الإحساس

يكتب بويز في ترجمته الذاتية قائلا : أن البراهين على هذا - اعني على ابني قادر ، وغير واع على الاطلاق ايضا على أن امتلك نوعا من اللائمة أي أن تكون لي عين شريرة تنزل الأذى بمن آذوني ، هذه البراهين قد تراكمت وتخللت حياتي كلها حتى لقد اصبح من عادتي ان اصلي لآلهتي بلهفة وعجلة من اجل كل عدو ان حالة بويز تثير الاهتمام بسبب الطبيعة المتميزة الغريبة لعبقريته فحتى منتصف الخمسينات من عمره ، انفق بويز جانبا كبيرا من حياته في القاء المحاضرات في امريكا، وكان قد كتب ثلاث روايات في اوائل عقده الرابع ، وكانت روايات ممتعة ولكنها غير بارزة ، ولكنه في عقده السادس اصدر سلسلة من الروايات الهائلة - في حجمها وفي التصور الذي تطرحه - بدءا بروايتي وولف سولنت و حكاية حب جلاستونبري ان اكثر ما يلفت النظر في تلك الروايات هو ما تحتويه من نزعة تصو فية في الطبيعة وحيويتها التي لا تصدق من الواضح أنه استطاع أن يغوص حتى وصل الي ينبوع ما من ينابيع اللاوعي ، وكانت النتيجة سيلا متدفقا فيه من جلال شلالات نياجارا وعظمتها شيء كبير ، وربما كانت رواية حكاية حب جلاستونبري رواية فريدة في بابها من حيث انها الرواية الوحيدة التي كتبت من وجهة نظر عين الله، وابسط وسيلة نصور بها هذا الراي هي أن نقتطف نقرتها الأولى :

في عز الظهيرة من ذات يوم خامس من احد شهور مارس حدث أن تحركت على بعد نصف ذراع من محطة سكة حديد براندون رغم أن حدث وراء ابعد بحيرات الفراغ وسط أقصى المجموعات النجمية ،حركت واحدة من تلك المويجات الدقيقة اللانهائية وسط الصمت الخلاق للعلة الأولى التي تتحرك دائما حينما تثير وخزة استثنائية من الوعي المرهف الحاد أي كيان عضوي حي في الكون الفلكي عبر شيء ما في تلك اللحظة ، موجة ، حركة ، أهتزازة ، اكثر دقة ونحولا من أن توصف بالمغناطيسية ، واكثر ضآلة وضعفا من أن توصف بالروحانية ، عبرت بين روح كائن انساني بعينه كان يخرج من احدى عربات الدرجة الثالثة من قطار الساعة الثانية عشرة والدقيقة التاسعة عشرة القادم من لندن وبين الروح الالهية الشيطانية للملة الأولى الحياة كلها تمنح تجريدية اللغة هنا انطباعا زائفا عن كتاب يمكن أن يكون أي شيء الا ان يكون تجريديا ولكن هذه التجريدية في اللغة تكشف ايضا عن رغبة بوير في النظر الى شخصياته وأحداثه من وجهة نظر كونية ما ، تبدو فيها الطحالب النامية في بركة آسنة واليرقات الدودية في شجرة عفنة ، في مثل اهمية الشخصيات الانسانية وعلى المرء أن يلاحظ الافتراض المسبق في تلك الفقرة الأولى ، وهي الفرنسية الماثلة في كتاب بويز كله وهي القائلة بأن ثمة نوعا من الاثير النفسي يحمل الاهتزازات العقلية ، مثلما يفترض أن الاثير الضوئي يحمل موبجات الضوء

وهذا هو ما اعرفه بانه الاقتراح الجوهري للسحر او المجموع علوم الغيب : وربما كان هو الاقتراح الأساسي الوحيد وهو ما سوف يقبل على علاته على طول هذا الكتاب

ولكن الامر الذي يبدو بالغ الأهمية في بويز هو أنه يتعمد أن يأخذ على عاتقه مسؤولية غرس التعدد العقلي ، اي القدرة على الخروج من هويته الخاصة لكي يدخل في هوية غيره من الناس بل من الأشياء : لا يمكنني أن اشعر بنفسي داخلا في الهوية المتحدة لعامود يدعم جسرا صغيرا ، أو لجذع شجرة، أو لعامود حجري في دائرة صخرية من العصور القديمة ، وحينما افعل هذا، يصبح شكلي وقد اصبح مثل شكل هذا العامود ، او الجذع او هذه الكتلة من الصخر وكانت هذه محاولة لدفع عقله بنعومة الى حالة من السكون المتطابق مع الاثير النفسي ، اي مع العالم الموضوعي الشاسع الذي يحيط بنا لقد مر كل الناس بتجربة الاحساس بالغثيان، ثم التفكير في شيء آخر ، ثم الإحساس باختفاء الغثيان ان الموضوعية تتسبب في ان تطفو القوة سابحة إلى داخل الروح ، في شكل دفقة كاسحة من القوة والاتصال بالقوى الغريبة الهائلة التي تحيط بنا وفي مقطع مشهور من قصيدة ووردزورث استهلال ، يصف الشاعر رحلتة في قارب الى البحر في منتصف الليل ، فتركت قمة منتصبة هائلة في عقله انطباعا عميقا ، ويصف ما حدث بعد ايام من هذه التجربة :

عقلي راح يعمل باحساس معتم خال من التصميم احساس بالأشكال المجهولة للوجود ، و فوق افكاري انبسطت ظلمة ، ادعوها الوحدة او الهجران الصريح الاشكال المألوفة كلها لم تبق ، ولا صور الأشجار البهيجة ، ولا صور البحر ولا السماء ، ولا الوان الحقول الخضراء ليس الا الاشكال الهائلة الضخمة ، تلك التي لا تحيا مثل البشر الأحياء ، تحركت ببطء عبر العقل في وضح النهار ، فكانت هما لاحلامي الكتاب الأول كان ووردزورث ، مثله مثل بويز، قد حقق العبور الى ما وراء شخصيته الخاصة ، وحقق اتصالا مباشرا مع الأثير النفسي ولكنه مع تقدمه في السن فقد هذه المقدرة على التسامي بشخصيته ، وفقد الشعور عظمته اما بويز فانه لم يفقد ابدا قدرته على استحضار نوع غريب من النشوة وفي الترجمة الذاتية يصف ما حدث اذ كان يلقي محاضرة عن ستريندبرج في مسرح يكاد يكون خاليا في سان فرانسيسكو ، وهناك نبع في داخله ذلك الروح الحارس الغلاب ، الذي يمكن ، أن يلمس في مكان ما من طبيعتي وهو الروح الذي يملك حينما يلمس قوة الشيطان نفسه ادركت لحظتها وبحيوية تزيد عن اي ادراك سابق ، أن سر الحياة يتكون من المشاركة في القدرة على استثارة نوع غريب فريد من الابتهاج والجدل في داخل نفسك اذ تواجه الجماد الخالي من الحياة والوعي والحركة ، انه ابتهاج يساوي في ذاته نشوة جنسية كونية حقيقية ويحدث الشيء نفسه مرة اخرى في المسرح الروماني الدائري المكشوف في فيرونا :وحيدا كنت في تلك الدائرة الرومانية ، تحت تلك السحب التي لا تسقط منها قطرة مطر واحدة ، برز ذلك العنصر الخارق المعجز في طبيعتي

واتضح الى الدرجة التي شعرت عندها – بما لم اشعر به سوى مرة او مرتين منذ ذلك الحين - بانني قد وهبت حقا نوعا ما من القدرة غير الطبيعية ولم اشعر بهذا الا مرة واحدة بعدها ، منذ خمس سنوات فحسب ، حينما زرت وسئونهينج ان الاحساس الذي يتملكني في مثل تلك الحالات هو الإحساس باكبر قدر من القوة الغلابة يمكن تصوره وهناك اسبابا لتبرر الاعتقاد بأن بويز لم يفهم دوافع تلك القوة وطريقة عملها وهناك قصة غريبة نسبت الى بويز وصديقه تيودور درايزر :قال درايزر انه حينما كان يعيش في نيويورك، في الشارع السابع والخمسين من الحي الغربي ، كان جون كاربر بويز يأتي لتناول الغداء من حين الى حين وفي هذا الوقت كان بويز يعيش في هذه البلاد في بلدة صغيرة على بعد نحو ثلاثين ميلا من نيويورك على ضفة نهر الهدسون، وكان من عادته ان يغادر منزل درايزر في وقت مبكر جدا لكي يلحق بالقطار الذي يستقله الى بيته وذات يوم، وبعد محادثة طويلة دارت عقب تناول الغداء ، نظر بويز الى ساعته وقال في عجلة أنه لم تكن لديه فكرة عن تأخر الوقت الى هذا الحد ، وان عليه ان يرحل معه فورا والا فاته القطار عاونه در ايرر على ارتداء معطفه ، وقال بويز وهو في طريقه إلى الباب :سوف اظهر أمامك ، ها هنا ، فيما بعد في هذا المساء وسوف تراني وقال درايزر :هل تنوي أن تحول نفسك إلى شبح ، ام انك تملك مفتاحالباب منزلى وضحك درايزر وهو يطرح هذا السؤال ، لانه لم يكن يصدق للحظة واحدة أن بويز كان يعني ما يقول بجدية وقال بويز :لا اعرف انني قد اعود في شكل روح او في شكل شبح نوراني ما وقال درايزر انه لم تكن هناك اية مناقشة من أي نوع في ذلك المساء عن الاشباح او الارواح او الروى، وانما دار الحديث اساسا عن الناشرين الأمريكيين وعن أساليبهم في العمل ،

وقال انه لم يفكر بعد ذلك ابدا في وعد بويز بالعودة اني الظهور ، وانما راح وجلس يقرا لمدة حوالي ساعتين وحيدا ثم رفع عينيه عن كتابه فراى بوير واقفا في فتحة الباب القائم بين بهو المدخل وحجرة الجلوس كان للشبح ملامح بويز ،وقامته الطويلة ، وملابسه الفضفاضة المصنوعة من صوف التويد ومظهره العام ، ولكن وميضا ابيض شاحبا كان يشع من الشخص المائل امامه نهض درايزر على الفور وخطا خطوات واسعة نحو الشبح وهو يقول: حسنا ، لقد بررت بوعدك ياجون انك هنا فتعال واحك لي كيف فعلتها ولم يجبه الشبح ،وانما اختفى حينما كان درايزر على بعد ثلاثة أقدام منه وحالما أفاق درايور الى حد ما من دهشته ، التقط سماعة تليفونه فطلب رقم منزل جون كاربر بويز في الريف ، واجابه گاوبر على التليفون وتعرف در ايرر على صوته وبعد ان استمع بويز الى قصة

الشبح من درايزر قال : لقد قلت لك انني ساكون هناك وأن عليك الا تدهش وقال لي درايور انه لم يستطع ابدا ان يحصل على اي تفسير من بويز الذي رفض ان يناقش الموضوع مع درايزر من أي وجهة للنظرلماذا كان ينبغي على بويز ان يرفض مناقشة المسألة من أي وجهة نظر؟لانه لم تكن لديه فكرة عن كيفية قيامه بهذا العمل لقد اعتمدت المسألة على طبيعة العلاقة النفسية بينه وبين درايزر : كان من عادتي ان اشعر بوعي بانطلاق دفقات من الجاذبية المغناطيسية بيني وبين درايزر الأمر الذي يبدو لي بعيدا عن مجال الكيمياء العضوية ، وراجعا الى تدخل قوة غيبية غامضة من نوع ما ومن المحتمل أن يكون ظهور الشبح مقصورا على عقل درايزر وحده فلو كان هناك شخص آخر في الحجرة لما كان بوسعه أن يراه انني قد ابدو متناقضا مع نفسي بالقول بان بويز لم تكن لديه فكرة عن كيفية اظهاره لشبحه

ولكنني في الحق لا اناقض نفسي ذلك اننا الآن مهتمون بالمسألة الأساسية ، وهي مسألة السيطرة الواعية على العقل اللاواعي ان كل وظائفي العضوية ، من الهضم الى الاخراج ، تخضع لسيطرة اعماقي اللاواعية فلو كنت في حالة عصبية، لوجدت انه من المستحيل ان اتبول في مرحاض عام مع وجود اشخاص آخرين يقفون بالقرب مني ، ولا سبيل لاي قدر من الجهد الواعي لان يدمر هذا الكبت ، وانما احتاج الى ان استرخي لكي اترك للاوعي مهمة انجاز هذا العمل كان سنتندال يعاني من اضطراب جنسي محرج كان يدعوه والاخفاق فحينما كانت استثارته الجنسية تبلغ النقطة التي يصبح فيها متهيئا لممارسة الجنس ، فانه كان يعاني من نوع محرج من انهيار القدرة على هذه الممارسة ولم يكن بوسع أي قدر من الرغبة الواعية ، تبديها شركته التي خاب املها ، ان تؤدي الى اي فرق انني ان احاول ان اتذكر اسما نسيته فانني اعتمد ثانية على لا وعيي من اجل دفعه الى الطبيعة في فرنسا، واحد الوجوه البارزة في الفكر الاوروبي مع بداية ازمة الضمير في الحضارة الغربية التي بلغت ترولها بين سقوط نابوليون حتى الحرب العالمية الأولي ، بل المدارس الفلسفية والفنية التي ظهرت اثناءها وفيما بعد في مجال الأدب الروائي الواقعي ، وفي اكتشاف شخصيات العالم البورجوازي من عمر ما بعد الثورة وائر ستندال ايفا لي بورجيه وتين زولا ، واخرين كثيرين من كتاب فرنسا واوروبا : دي جونكور ومواسان ، وديكنز وناكري وتور جنيف اشترلد ستدال في بعفى حروب نابوليون ، وهناكره هليوليون ، وان كان قد احتقر وطنه لانه خلال نابوليون واصب بايرون لاعجابه ببونابرت، وعاش مثل بايرون ،لي المندي باختياره ، وفي ايطاليا مثل بايرون : هم اعلى،

رغم انني في هذه الحالة قد اكون قادرا على ان اتصرف دون لجوء الى معونته ، انني قد ابحث عن الإسم في كراسة العناوين عندي ، او ان احصل عليه باللجوء الى حيلة تداعى وترابط الأفكار ليس هناك سبب يمنع العناوين من تعلم الحيل الاساسية للتلباثي ، اوحتى الظهور الشبحي مثلما قد يدرب ذاكرته للوصول الى مستوى اكبر من هذا فانه يظل عاجزا عن تفسير كل ذلك ، حتى لاقرب اصدقائه ويمكن للانتكاس العاطفي الحاد ايضا ان يستشير الملكات النفسية وتقدم لنا حالة ستريندبرج الكاتب المسرحي مثالا مثيرا للاهتمام فقد تسبب تحطم زواجه الثاني في تفجير ازمة عاطفية اقترب في اثنائها من الجنون لقد عانى من اوهام وتصورات الاضطهاد ، وصفت كلها باسهاب في الكتاب الذي يضم سيرته الذاتية بعنوان الجحيم وكانت النتيجة تطورا لم يكن هو يسعى اليه ولم يحسب حسابه للقدرات النفسية التي تتطابق مع حالة بيتر هيركوز انه يصف واقعة عارضة من وقائع الظهور الشبحي ، فيقول في خريف عام ١٨٩٠ كنت امر بفترة مرض خطير في العاصمة الفرنسية حينما تغلب على الاشتياق الى ان اكون في وسط عائلتي الى الدرجة التي رايت فيها منزلي من الداخل ، وللحظة نسيت ما كان يحيط بي بالفعل ، لانني كنت قد فقدت الوعي بالمكان الذي كنت فيه كنت حقا هناك وراء البيانو مثلما ظهرت ولم يكن لخيال السيدة العجوز دخل في المسالة على الاطلاق ولكن لانها كانت تدرك هذا النوع من حالات الظهور الشبحي ، وكانت تعرف مغزاها، فانها رأت في ظهوري هناك انذارا بالموت ، فكتبت خطابا لتسال ان كنت مريضا

ان ما يثير الاهتمام في هذا التقرير القصير هو أن قدرة ستريندبرج على الظهور الشبحي كانت مرتبطة بالخيال لقد تخيل بوضوح الحجرة التي كانت ام زوجته تجلس فيها وهي تعزف على البيانو ، وتمكنت كثافة رؤياه الخيالية بشكل ما من عرضه في داخل تلك الحجرة الحقيقية كان قد استخدم الأثير النفسي كما لو كان قد استخدم التليفون او دائرة تليفزيونية مغلقة وفي نفس الكتاب يصف ستريند عمقا ففي الساعات الباكرة من الصباح ، في اثناء فترة من التوتر العاطفي ، كان جالسا في مشرب للنبيد، محاولا اقناع صديق شلب بالا يهجر حياته العسكرية من

اجل السعي الى ان يكون فنانا سب بصف ستريندبرج حادثة ربما كانت ذات مغزى بعد أن سقت ما استطعته من حجج وطرحت عليه مناشدات لا نهاية لها اردت ان استدعي الى ذاكرته حادثة قديمة على امل ان تؤثر على قراره كان قد نسي الحادثة التي اردتها، ومن اجل ان استثيرذاكرته شرعت في وصفها له قلت الا تذكر ذلك المساء في حانة اوجستينر ومضيت في وصف المائدة التي تناولنا عليها وجبتنا ووضع البار والباب الدي كان الناس يدخلون منه ، وقطع الأثاث والصور و فجأة تماما، توقفت كنت قد فقدت وعيي تقريبا ، ولكن دون ان يغشي علي ، وبقيت جالسا في مقعدي كنت في حانة اوجستيز ، وكنت قد نسيت مع من أتكلم ، حينما رحت اغمغم بكلمات هي انتظر دقيقة ، أنا الآن في حانة اوجستيز ، ولكنني اعرف جيدا تماما انني في مكان آخر لا تقل أي شيء انني لم اعد اعرفك ،

ومع هذا فانني اعرف انني اعرفك اين انا ؟ لا تقل شيئا ان هذا لممتع ومثير للاهتمام ثم بذلت مجهودا لكي ارفع عيني - لا اعرف ان كانتا مغلقتين ام لا فرايت سحابة ، وخلفية ذات لون غير متميز ، ومن السقف هبط شيء مثل ستارة المسرح كانت هذه هي الجدار الذي يقسم الحجرة الى قسمين ، علقت عليه الرفوف والزجاجات قلت :اوه، اجل بعد أن شعرت بغصة من الالم تتخللني وتخبرني وقلت انني في مشرب للنبيذ كان وجه الضابط قد اصبح متشنجا بسبب الانزعاج والقلق ويبكى قلت له : ما الأمر ؟ اجابني : كان هذا شيئا مرعبا يمكننا بالطبع ان نتجاهل الأمر كله باعتباره من نبت خيال ستريندبرج ،الذي كان مستثارا تحت وطأة الضغط العاطفي ومن جانب آخر فان هذا الحدث متطابق مع نظرية الملكات النفسية التي حاولت ان الخصها ، والتي تحمل طابع الحقيقة أن سترندبرجرجل امين الى درجة ملحوظة ، على الرغم من امراضه العصابية تمثل ما يكتشف القاريء حينما يكون من الممكن له أن يقارن روايته للاحداث برواية شخص اخر مرة ثانية علينا ان نقول انه كان مجهدا جسديا وعاطفيا كان يدفع نفسه فيصل الى اقصى حدود طاقته حينما كان يستخدم قدراته على الاقناع وان الامر ، ليبدو على النحو الذي يقرره هو نفسه في الكتاب ذاته بقوله : في الأزمات العظمى للحياة ، حينما يصبح الوجود ذاته مهددا ، تكتسب الروح قدرات علوية منزهه

ويمكننا أن نعثر على واحدة من اكثر المعالجات لتلك القدرات تماسكا واثارة للاهتمام في الكتاب المسمى الدفاع النفسي عن الذات كانت تعمل في مدرسة ، تحت رئاسة مدير شديد الوطاة قوي السيطرة ، اخذ موقف النفور منها ، فوجه او هكذا اعتقدت فيوليت فيرث تيارا من الشر والخبث النفسي ضدها ، مستخدما اساليب اليوجا والتنويم المغناطيسي الفنية

وكانت النتيجة ازمة مزمنة ، في صورة احساس دائم بالروع والبؤس اكثر بكثير مما يمكن أن يسببه هجوم نفسي فعلي وقادها احتياجها لتحليل ذاتها إلى دراسة علم النفس الذي كتبت حوله عددا من الكتب، ووصلت فيما بعد الى الاحساس بانه حتى نظريات فرويد ويونج تفشل في تقديم تفسير او تصوير عادل حقيقي لمقدار ما يتمتع به العقل الإنساني من تعقد ، فتحولت الى دراسة علوم الغيب وكانت تتمتع دائما بدرجة ما من القدرة على أن تصبح وسيطا وانضمت الى جمعية الفجر الذهبي وهي جمعية للسحر والسحرة فاشتبكت في مصادمات نفسية ابعد مدى مع مسز ماترز ، زوجة مؤسس الجمعية ونتيجة لتلك التجارب المزعجة وصلت الى الاعتقاد بأن في وسع العقل البشري ان يصد وأن يقاوم القوى النفسية المعادية التي تبرز بصورة غير واعية غالبا وتنبع من اشرار الناس وذوي النوايا السيئة بل ان الاكثر اثارة للاهتمام هو الاشارة الى ان العقول المتفائلة الصحيحة تصد وتقاوم سوء الحظر المادي ، وان الميل للتعرض للحوادث او سوء الحظ العام هما نتيجة النفسية اصبحت قابلة للاختراق والانكسار أمام الهزيمة او التجمد المميت وينبغي هنا ، أن الخص نظريتي الخاصة الأساسية عن تلك القوى التي يتمتع بها العقل في رواية جونسون: راسيلاس ، امير الحبشة مشهد ينظر فيه الأمير الى منظر الراعي الذي تجلله سكينة السلام في الوادي السعيد حيث يعيش ، فيتساءل متعجبا لماذا لا يستطيع ان يكون سعيدا مثل الأغنام والابقار يفكر متاملا بكابة بينه وبين نفسه: لا استطيع ان اكتشف في داخلي قدرة على الإدراك لا تفيض بمتعتها التي تتطابق معها كل التطابق ، ومع ذلك فلست اراني مبتهجا من المؤكد ان الانسان حاسة كامنة مستترة لا يوفر لها هذا المكان ، اشباعا ولا رضا او مسرة ، او ان للانسان نوعا من الرغبات متميزا عن الحواس لا بد من اشباعها قبل أن يستطيع أن يكون سعيدا

الفصل الثاني

ان الحاسة الخفية المستترة هي شهية الانسان المفتوحة الى الارتقاء والتطور ، والرغبة في الاحتكاك بالحقيقة والتواصل معها ولكن ليس هدا هو كل شيء من ذا الذي لم يخبر ذلك الاحباط الغريب الذي يأتي في لحظات المتعة والتحقق ؟ حينما كنت طفلا: كان هذا هو ما اشعر به ازاء الماء فاذا خرجت مع ابوي في رحلة بسيارة عامة ، كان من عادتي ان اطل برأسي من النافذة في كل مرة نعبر فيها فوق احد الجسور ، شيء ما في مسطحات الماء الواسعة كان يثير في داخلي رغبة مؤلمة وجدتها غير قابلة للفهم وذلك لانه لو انني اقتربت بالفعل من الماء، فما الذي كان يمكنني ان افعل لكي اشيع هذا الاحساس اشربها اسبح فيه؛ وهكذا، فانني حينما قرات لاول مرة تلك الفقرة من رواية راسيلاس ادر كت على الفور ما عناه جونسون بقوله :حاسة كامنة مستترة ما او رغبات متميزة عن الحواس لا بد من اشباعها قبل ان تستطيع أن يكون سعيدا

وأطلقت على هذه الحاسة الخفية اسم لملكة س ووصلت الى ادرالدان لهذه الملكة س علاقة ما بالحقيقة في طريق سوان فتذكر فجأة طفولته في كومبراي - تذكرها بقدر من الكثافة والحدة حتى انه للحظة كان بالفعل هناك متعة غريبة فائقة الجمال غزت حواسي وعلى الفور أصبحت تقلبات الحياة ووجوهها المتبدلة غير ذات قيمة بالنسبة لي ، كوارثها لا ضرر منها ، وقيرها وهم الآن لم اعد اشعر بانني متوسط عادي ، ولا عارض عابر ، ولا قابل للفناء قبل ذلك بخمس دقائق ، كان بوسعى أن اقول : اجل ، لقد كنت طفلا في كومبراي ، ولا شك أنه وصف طفولته تلك بالتفصيل ، ولكن الكعكة المغموسة في الشاي أصبحت تعني أن يقولها وان يعنيها يقول تشسترتون بالبحث عن الزمن الفائت الذي نشر عام ١٩٢٣،

وصدرت الترجمة الانجليزية للرواية بعنوان تذكر الأشياء الماضية ويتم هلا المجلد - الدي اصبح أشهر الأجزاء السبعة للرواية - نظريات بروست وتأملاته الذهنية حول الانسان والزمن ، التي سيقيم على اساسها بناء ونسيج بدايته - الوجوانبه ذكرياته المتعددة ، ذات التركيب الهارموني لي بناء سيلمونى متداخل النسيج متقابل التكوين ويحكى بروست لي طريق سوان ذكرياته عن اسرة سوان التي كان يمر بمنزلها وممتلكاتها على جانبي اهلا الطريق مع امه اثناء جولاتهما في طفولته فيريف مقاطة كومبراي ، وهو احد طريقين كانا يتخذانهما في هذه الجولات والطريق الاخر طريق اسرة جورمانته الذي سيحكي ذكرياته عنه ، عن الاسرة والشخصيات والأجواء الاجتماعية المرتبطة به في الجزء الثالث من الرواية و بنفس العنوان هم

اننا نقول اشكرك حينما يناولنا شخص ما الملح، ولكننا لا نعني هذه الكلمة ونحن نقول ان الأرض كروية، ولكننا نعني هذه الكلمة ، رغم انها صادقة اننا لا نقول الشيء فنعنيه حقا اذا كانت الملكة س متيقظة ، ذلك الوصول المؤلم الى ما وراء الحواس ان الملكة س هي مفتاح كل التجارب الشعرية والصوفية ،حينما تستيقظ ، تكتسب الحياة فجأة خاصية حادة نافذة جديدة كان فاوست على وشك الانتحار في اجهاده وباسه حينما يسمع اجراس عيد الفصح ، تعيد اليه الأجراس طفولته، و فجاة تستيقظ الملكة س ، فيعرف أن الانتحار هو اكثر انواع السخف الخالي من المعنى جديرا بالضحك على الاطلاق

الملكة س ببساطة، هي تلك القوة الخفية التي تمتلكها الكائنات الإنسانية فتصل بها إلى ما وراء الحاضر فنحن نعرف ، بعد كل شيء ، معرفة كاملة تماما ان الماضي لا يقل حقيقة عن الحاضر ، وان نيويورك ولاهاسا وسنغافورة وستبني جرين كلها لا تقل حقيقة عن هذا المكان الذي تصادف انني فيه الآن ومع هذا فان حواسي لا توافق على هذا انها تؤكد لي أن هذا المكان، هنا والآن ، الاكثر حقيقة بـاكثر من أي مكان آخر او اي زمان اخر فلا يحدث الا في لحظات معينة من التبصر الداخلي الحاد الكثيف ان اعرف ان هذا اليس سوى اكذوبة الملكة س احساس بالحقيقة ، حقيقة الأماكن الأخرى والازمنة الأخرى وان امتلاكها - رغم ما عليه من تشتت مبعثر وعدم يقين او تأكيد - هو ما يميز الانسان عن كل الحيوانات الأخرى

ولكن اذا كانت الحقيقة الثقيلة الوطأة لهذا المكان وهذا الزمن مجرد وهم : فكذلك هو احساسي بانني هنا وانني لست هنا ، ولا انا في اي مكان آخر وهكذا ، فاذا كان بوسع الملكة سر ان تجعل ستريندبرج يدرك بوضوح حقيقة مكان يقع على بعد عدة مئات من الاميال عنه ، أفليس من المعقول انها قد تنقله الى هناك بمعنى آخر ؟ سيكون من الخطأ أن نفكر في الملكة س باعتبارها ملكة غيبية انها ليست كذلك ، انما هي القدرة على الإمساك بالحقيقة والقبض عليها ، وهي توحد نصفي عقل الانسان الوعي واللاوعي فكر في الآتي : ماذا يحدث اذا ذكرتني فجأة مقطوعة موسيقية او رائحة خشب يحترق بشيء وقع منذ عشر سنوات ؟ انه امر يشبه لمس ساق ضفدعة ميتة بسلك يحمل شحنة كهربائية يتقلص عقلي ويتقبض ، اذ يقبض فجأة على وحقيقة ذلك الزمن الماضي كما لو كان هو الحاضر

الشيء نفسه هو ما يحدث لمارسيل بروست في طريق البجع حينما يتذوق، الكعكعة المغموسة في الشاي فهذا الماضي يفيض عائدا متراجعا كالحقيقة ان ما يحدث هو ان وعينا المشتت الكسول بشكل عادي يركز : مثلما قد أقبض قبضتي في تشنج ان النغمة او الرائحة لا توفر اكثر من المثير او المهيج، وتقوم قوتي الداخلية بالباقي - وهي قوة داخلية لا ادرك وجودها بشكل طبيعي منذ بضع سنوات ، اجرى علماء النفس تجربة كلاسيكية على قطة ربط سلك بالعصب الممتد بين أذن القطة ودماغها ، وربط الطرف الآخر للسلك بمولد كهربائي صغير ينتج نبضات كهربائية منتظمة وحينما كان ينطلق صوت مرتفع بالقرب من أذن القطة ، كانت ابرة المسجل تقفز بعنف ثم وضع قفص مليء بالفئران امام القطة راحت هي ترقب الفئران بتمعن ثم اطلق نفس الصوت المرتفع بالقرب من اذنها ولكن الابرة لم تتحرك كانت القطة شديدة الاهتمام والتركيزبالفئران حتى انها تجاهلت الصوت وبشكل ما اطفأت او اوقفت تشغيل الرابطة الجسدية المادية بين الأذن والدماغ لقد اختارت أن تركز على شيء آخر بوصفه كائنا اجتماعيا مبينا للبطل انه لن يفقد فضيلته اذا اجترح الشر دون غرض او رغبة الثانية في الحصول على ثماره لنفسه ، ودون ان يلتد پايته الحقيقة النهائية والمطلقة وفعلا تتم المصالحة بين الفعالية وبين النزعة الروحية النهائية والمطلقة من خلال تفسير الموقف الأصلي للإنسان ونواياه (انما الاعمال بالنيات) وتبين نهاية الملحمة كلها بهذا المعنى

، ازي ارجاراخوته بعد انتصارهم وفوزهم بالجميلة بردبارى وبالرش ايفا ، يلفتون ان يهجروا كل شيء ، ويذهبوا الحياة كنساك زاهدين في جبال الهيمالايا المقدسة (بعكس النهاية المعتادة للملحمة الغربية : الفوز بالغنائم والتمتع بها متلك كل المخلوقات الحية تلك القدرة على التركيز على شيء يثير اهتمامها، ثم تطفيء كل شيء آخر ان الشخص الذي اعتاد على مدينة حديثة ، من المحتمل أن يطفيء ، او ان يقطع تأثير اكثر من ١١ بالمائة من المثيرات التي تقع على الحواس ونحن كلنا نعرف هذا ولكن الشيء الذي لم ندركه بعد هو القدرة غير العادية التي نمتلكها في صورة مقدرتنا على التركيز على جوانب بعينها من الحقيقة وهذه انقدرة هي الملكة س ، ولكننا في هذه اللحظة ، لا نكاد نستفيد منها بشيء غير واعين بامكانياتها الكبيرة ان الامر ليستحق طرح هذا السؤال : ما هي وخليفة الوعي ؟ حينما تكون غارقا في سبات النوم ، لا تكون مالكا لاي وعي وحينما تكون متعبا جدا ، فان وعيك يكون مثل ضوء خاب لا يكاد يضيء شيئا وحينما تكون كامل اليقظة والاستثارة ، فان الوعي يبدو كما لو كانت قوة اضاءته مقاسة بعدد شمعاتها تزداد هدفه ووظيفته هو ان يضيء الحقيقة ، أن يمتد الى داخل طواياها ، وهكذا يعيننا على أن نتصرف فيها وان نغيرها او ان نبدلها ومن الواضح أن هدفنا الرئيسي ينبغي أن يكون زيادة قوة اضاءة هذا الوعي فحينما تكون انساء نه منخفضة تصبح الحقيقة غير حقيقية وحينما يزداد قوة، تصبح الحقيقة اكثر حقيقية : وهذه هي الملكة س ان واحدا من اوضح امثلة أعمال الملكة س ليمكن أن يعثر عليه في المجلد العاشر من كتاب آرنولد توينبي أن كاتب هذه الدراسة قد عاش تجربة صغيرة حقيقية من هذا النوع، في اليوم الثالث والعشرين من مايو عام ١٩١٢،

بينما كان جالسا يروح عن نفسه على قمة قلعة ميسترا ، بينما الجدار الاصم لجبل تايجيتوس يؤشر الأفق أمامه في الجانب الغربي من المنطقة، إلى حيث كان يحدق ببصره، وكان سهل اسبرطة المفتوح يمتد متراميا في الجانب الشرقي المقابل ، من حيث كان هو قد جاء في ذلك الصباح لم تكن التجربة الحسية التي اثارت خياله التاريخي صوت ترانيم لاغنيات شعائر دينية ، انما كان منظر الأطلال التي شق وسطها طريقه صاعدا الي القمة ، وقد كان هذا المشهد مرعبا مروعا ، ذلك انه في مدينة الجنيات المدمرة تلك ، كان الزمن قد وقف ساكنا منذ ذلك الربيع من عام ١٨٢١ بعد ميلاد المسيح الذي اتفرت فيه مدينة ميسترا من ابنائها ففي صباح يوم من ايام شهر ابريل ، ومن قلب زرقة السماء ، انهمر سيل ابناء الجبال المتوحشين من فوق جبل مانى فامتلكوها ، واجبر اهلها على الفرار طلبا للنجاة بحياتهم ، وسلبوا وذبحوا في فرارهم ، ودمرت منازلها المهجورة ، وتركت منازلها مقفرة منذ ذلك اليوم الي هذا اليوم لم يكن ما طرا لتوينبي في هذه المناسبة هو ببساطة مسألة اللغز القاسى الجرائم البشرية و بلاهاتها وانما الحقيقة الكلية للمشهد الذي استحضره بخياله وهو يذكر ست تجارب اخرى ظهر فيها نفس تأثير الحقيقة من ابتعاث الرؤى الوهمية واستحضارها فاذ كان يقرا كيف واجه زعيم منفي هارب من زعماء حركة الوحدة الايطالية زوجته حينما رفضت أن تساعده ، فانتحر امام عينيها ، كان يقرا هذه الواقعة : فنقل في ومضة واحدة عبر ه وة الزمان والمكان ، من اوكسفورد في عام ١٩١١ بعد ميلاد المسيح الى مدينة تيانوم عام ٨٠ قبل الميلاد ، لكي اجد نفسي واقفا في فناء خلفي في ليلة مظلمة ، اشاهد ماساه شخصية وهو يسجل تجارب مشابهة - واها في اختصار شديد - حينها كان يقرأ ما كتبه برنال دياز وهو يصف كيف وقع بصر الاسبانيين لاول مرة على مدينةتينو شتيتلان ،

ثم وهو يقرأ ما كتبه فيهاردوين في وصفه لرؤيته الأولى لمدينة القسطنطينية خلال الحروب الصليبية ، ثم وهو يقرأ ما كتبه جندي يوناني في وصف كيف حاول أن ينقذ فتاة من الاغتصاب واخيرا تأتي تجربة يفيم فيها ويختفي الخط الفاصل بين الملكة س وبين التجربة الصوفية : في كل واحدة من التجارب الست التي سجلتها لتوي ، كان الكاتب قد اصبح غارقا في تواصل مؤقت مع الممثلين الحقيقيين لكل حدث تاريخي بعينه من خلال ما وقع على خياله من تأثير نظرة آسرة مفاجئة الى المشهد ولكن ثمة مناسبة اخرى وهب فيها تجربة اكبر واكثر غرابة في لندن ، في القسم الجنوبي من طريق باكينجهام بالاس ، كان الكاتب يسير متجها إلى الجنوب على طول الطوار المحاذي للجدار الغربي لمحطة فيكتوريا ، وكان الوقت بعد ظهر يوم لا يبعد كثيرا عن تاريخ بداية الحرب العالمية الأولى ووجد الكاتب نفسه كان منغمها في تواصل ، ليس فقط مع هذه الحادثة او تلك من احداث التاريخ ، وانما مع كل ما قد كان في الماضي البعيد او القريب ، ومع كل ما سوف يجيء في تلك البرهة، كان مدركا بشكل مباشر لمسيرة التاريخ منسابة عبره برقة في تيار شتي، ومدركا لحياته الخاصة تتهادى كالموجة في انسياب هذا المد الشاسع العريض واستغرقت التجربة وقتا كفاه طوله لان يرى بعينيه السطح الاحمر المصنوع من الطوب في عصر الملك ادوارد ، والواجهات الحجرية البيضاء لجدار المحطة تمر على شماله ، ولان يتعجب ـ نصف مدهوش ونصف مسرور ـ متسائلا عما يجعل هذا المشهد العادي المتنافر هو الاطار والموقع المادي لنوع من الاستنارة العقلية بعد لحظة او لحظتين ، كان التواصل قد توقف ، وكان الحالم قد عاد ثانية إلى عالمه اللندني اليومي الذي كان هو وسطه وبيئته الاجتماعية حيث يعيش ويقطن هذه الصفحات التي كتبها توينبي تقف بين اوضح ما كتب من وصف لعمل س ،

وهي تبرز النقطة التي كنت احاول صياغتها فحينما اكون نصف نائم ، فان احساسي بالواقع يكون مقصورا على نفسي مقيدا بها وبما يحيط بي بشكل مباشر وكلما ازددت يقظة ، كلما طال أمتداده ولكن ما ندعوه الوعي المستيقظ ولا يكون في العادة افضل بكثير جدا من النوم اننا نظل مجلببين في حلم يقظة بليد وسلبي ولكن هذا لا يرجع الى ان ثمة حدودا طبيعية للوعي ، وانما هو يرجع فقط الى اننا نظل غير مدركين لان هذا الوعي يمكن أن يمتد اننا مثل الكلاب التي تظن انها مربوطة بالقيد او السلسلة ، بينما هي حرة في الحقيقة

أن الملكة س ليست حاسة سادسة وانما هي قدرة عادية من قدرات الوعي ولا بد أن يكون واضحايميل كتبند نيميا سبق انها هي المفتاح، ليس فقط لما يسمي بالتجربة الغيبية وانما لمجموع مستقبل ارتقاء الجنس البشري الجانب المظلم من القمر في خريف عام ١٩٩٩ ناقشت مسائل علوم الغيب مع الشاعر زوبرت جريفز في بيته في ماجوركا وعلى الفور ، اطلق جريفز ملاحظة جعلتني اجفل ان القدرات الغيبية ليست بالندرة التي تتخيلها فهناك واحد من بين كل عشرين يمتلكها بشكل من الأشكال

كان ما أثار اهتمامي الى درجة كبيرة هو الرقم الدقيق :٥ بالمائة فهذا ايضا هو رقم الأقلية المهيمنة بين الكائنات البشرية في السنوات الأولى من هذا القرن ، سال برناردشو ، المستكشف هنري ستانلي عن عدد الأشخاص بين رجاله الذين استطاعوا أن يتولوا قيادة جماعة الاستكشاف حينما كان ستانلى نفسه مريضا قال ستانلي : كانت نسبتهم واحدا بين كل عشرين وقال شو وهل هذا الرقم تقريبي ام بالتحديد واجاب ستانلي :بل بالتحديد

وقد أعاد الصينيون اكتشاف مسالة إليه بالمائة المهيمنة في خلال الحرب الكورية فرغبة منهم في الاقتصاد في القوة البشرية ، قرروا ان يقسموا أسراهم الأمريكيين الى مجموعتين : القادرين على التفكير في مشروعات ما وتنفيذها ، والسلبيين وسرعان ما اكتشفوا ان الجنود القادرين على التفكير والتنفيذ كانوا بالتحديد واحدا من بين كل عشرين : ٥ بالمائة وحينما ابعدت هذه الده بالمائة عن بقية المجموعة ، كان من الممكن ترك الآخرين دون حراسة على الإطلاق تقريبا والأدلة المستقاة من علم الحيوانات تشير إلى أنه من الممكن لظاهرة الخمسه بالمائة المهيمنة ان تنطبق على جميع الحيوانات ويبرز هنا السؤال الهام : الى أي مدى يمكن أن يكون افراد الخمسه بالمائة المهيمنين من الناحية البيولوجية هم الشيء نفسه الذي تعنيه الخمسه بالمائة من اصحاب القدرات الغيبية الذين اشار اليهم جريفز ؟ من المؤكد أن هناك اسبابا عديدة تدفع الى الزعم بتطابق المجموعتين ففي المجتمعات، البدائية يكون الزعماء القادة هم ايضا الكهنة والسحرة والرجال الذين قادوا جماعات الصيد لا بد انهم كانوا - مرة اخري - هم الذين امتلكوا درجة عالية من حساسية الأنفعال ما هي القدرة التي تميز القائد الزعيم ؟ انها القدرة على التركيز ، تركيز الارادة في لحظات الطواريء والخطر وهذا معناه القول بأنها شكل من اشكال الملكة س باختصار ، يبدو من المحتمل أن كل الناس يملكون اثرا باقيا من القوى الغيبية القوى التي تنبع من المستويات الأكثر عمقا لحيويتهم ، تلك التي اطلق عليها جرانفيل باركر الكاتب المسرحي اسم الحياة السرية ان افراد نسبة الخمسة بالمائة المهيمنين ماهرون في توجيه تلك القوي

وترويضها اكثر من معظم الناس ان السحرة ، والأطباء الذين يستخدمون السحر والعرافين والوسطاء كانوا من اعضاء نسبة الخمسة بالمائة المهيمنين الذين طوروا قدراتهم الطبيعية ويتدفق ضوء جانبي آخر هام على هذا الموضوع عن طريق البحث الحديث حول التنويم المغناطيسي الذي يبعث على النعاس العميق ، وقد وصف جانب منه في كتاب العقل والجسد الذي وضعه الدكتور ستيفن بلاك ويشير الدكتور بلاك إلى أن معظم الناس يمكن تنويمهم مغناطيسيا اذا هم تعاونوا في هذا الاتجاه - أن الشخص الذي لا يقبل التنويم المغناطيسي قد يكون مريضا عقليا - ولكن عددا ضئيلا فقط من الناس هم القابلون للنعاس العميق ومن الغريب تماما ان عددهم الدقيق تبلغ نسبته خمسة بالمائة من البشر ويمكن معالجة من يقبلون النعاس العميق من عدد مدهش من الأوجاع الجسدية عن طريق الايحاء في حالة التنويم - اوجاع تبدا من الربو الى الدمامل الصغيرة وحتى من يقبلون درجة متوسطة من النعاس عن طريق التنويم ، يمكن الايحاء اليهم في حالة النوم المغناطيسي فلا تتأثر جلودهم بعد التلقيح بالطعم المضاد للتدرن الرئوي الذي يتسبب بشكل طبيعي في ورم خفيف في موضع التلقيح وقد تمت معالجة مرضى كانوا يعانون من عدد كبير من الدمامل الصغيرة على مرحلتين ، بمعالجة جانب واحد في كل مرحلة، من قبيل التأكد من ان الدمامل لم تختف من تلقاء نفسها والمعتقد أن هذه الدمامل تظهر بسبب العدوى من فيروس معين ، ومع هذا فقد اختفت دون أن تترك آثار ندوب في فترات تتراوح بين خمسة اسابيع وشهرين ولكن تجارب الدكتور بلاك كانت اقل اهتماما بمعالجة اوجاع بعينها منها باهتمامها باثبات ان الجسد يمكن أن يتأثر بالعقل إلى درجة غير عادية ،

وفي هذا المجال كانت تجاربه ناجحة إلى درجة بارزة والقضية هنا ، مرة ثانية ، هي القدرة الخفية للعقل اللاواعي ، والتي يمكن الوصول اليها واستخدامها عن طريق التنويم المغناطيسى العميق في نسبة من البشر خمسة بالمائة ان خمسة بالمائة من البشر قادرون احتمالا على الاقل على الوصول الى عتبات القوى الخفية للحياة السرية

اما جريفر ناقل اهتماما بالسحرة واصحاب الاسرار الباطنة منهبالشعراء ، ويحتوي كتابه الهام : الربة البيضاء نظرية عن طبيعة الشعر لا تربط بين الشعر وبين قدرات اللاوعي فقط ، وانما تربط بينه ايضا وبين العبادات السحرية التقليدية وهناك ، طبقا لما يقوله جريفز ، شكلان من الشعر : شعر عرائس الفنون والشعر الأبوللونى الاول يخلقه الالهام ، ويحكمه الذوق ، أما النوع الثاني فيخلقه الذهن ، وهو يربط بين شعر عرائس الفنون وبين الراية البيضاء في الديانات القمرية البدائية اما العلم ، مثله مثل الشعر الأبوللوني المنسوب إلى اله الشمس ، فهو محاولة للقضاء على كل الخرافات القمرية والتنعم والأستدفاء في نور العقل الشمسي النقي أن تعليق جريفز عن اصل الراية البيضاء المثال بارز على ما يعنيه بالحدس الشعري :وبدات الاستنارة ذات صباح حينما كنت اعيد قراءة ترجمة اللادي تشارلوت وعرفت ايضا ولا تسألني كيف كان ذلك ان الاجابة لا بد ان تكون بشكل ما مرتبطة بحكاية شعرية ويلزية قديمة تدور حول معركة بين الأشجار المابينوجيون، وتتخلل القصيدة اسماء طائر من الطيور المائية ابو طيطه

وكلب وظبي من العالم الآخر ، وينتصر في المعركة اله معين استطاع ان يخمن أن اسم غريمه المقدس هو فرون او الدر لم يحاول أحد من قبل ابدا ان يفسر هذا الهراء والاكثر من هذا ، هو أن كلا النصين ، لا يمكن ان يكون له معنى الا في ضوء التقاليد الأيرلندية الدينية والشعرية القديمة ولست دارسا للتراث الايرلندي ايضا

-مجموعة متصلة الحلقات من الحكايات الشعبية والاسطورية في ويلز القديمة ، تتصل اساسا بحياة الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة وتعد صياغة اوروبية محلية للاساطير المسيحية الأولى ، مثل اسطورة الكاس المقدسة واسطورة الرداء وبارباس اللص وكانت هذه الحكايات مكتوبة في الأصل باللغة الوثنية القديمة، التي هي فرع من اللغات الكلية والمالية الاقدم عهدا ، لذلك ظلت مختفية عن الاداب الرسمية ، وعصية على افهام الدارسين الى ان تمت ترجمتها في القرن الثامن عشر وتتضمن المابينيوجيون تنويعات هامة وممتعة عديدة حول مغامرات الملك آرثر وفرسانه ، ومنها نقلشعراء وكتاب كثيرون ، مثل مالوري في موت آرثر واخرين من اوائل الرومانتيكيين دم

-اهم واعظم الشعراء الشعبيين في ويلز القديمة ، الدي جمع الأغاني وأساطير ويلز في ملحمة واحدة نسبة اليه ولكن كثيرين من الباحثين في الأدب الكلتي القديم يعتبرونه ، هو ذاته ، اسطورة ، مثلما ينظر بعض الجريجولوجيين الى هوميروس وقد نسبت اليه كميات من الشعر في مختلف الأنواع ، اكثر تنوعا وحجما مما يمكن لشاعر واحد ان يؤلف في خلال عمر واحد بالغ الطول الى درجة غير عادية ولكن شعراء الرومانتيكية الانجليزية اولعوا به ، ومنهم تنيسون وتوماس بيكوك وغيرهما

ولما لم تكن هناك اية علامة على وجود الجنون في عائلتي ، فانني لم اكن استطيع ان اصدق انني على وشك الجنون كان الأكثر احتمالا هو ان الهاما ما قد هبط علي وهكذا فقد قررت أن أتأكد من الموضوع بمساعدة رف ممتلىء من الكتب الموثوق بها حول الادب الكلتي وجدتها في مكتبة والدي وغالبيتها كانت موروثة عن جدي ، وكان مولعا بجمع الآثار الأيرلندية الصغيرة النادرة ولكني لم اكن قد قرات واحدا منها ولكي اختصر قصة طويلة ، اقول ان اجابتي على اللغز ، وهو بالتحديد الاسماء المكونة من حروف تنتمي الى ابجدية درويدية قديمة : تطابقت بدرجة مخيفة من الدقة مع اغنية تاليزين التي لم تكن هراء فارغا الى الحد الذي كان ذائعا عنها وثبت أن قصيدة معركة الاشجار كانت طريقة لا هراء فيها كما كانوا يزعمون لوصف الصراع بين الكهنة المتنافسين في بريطانيا الكلتية من اجل السيطرة على المعرفة والتعليم القوميين ترون الآن انني اكتشفت ان كلمة اشجار تعني التعليم في كل اللغات الكلتية ، ولما كانت الأبجدية هي اساس كل تعليم ، ولما كانت الأبجدية الدرويدية مثلما تذكرته عن كتاب يوليوس قيصر الحروب الغالية سرا يوضع تحت الحراسة الغيور في بريطانيا وغالة - حقا ، فان طلاسم حروفها الثمانية عشر لم تحل لا يقرب من الف سنة - فلا بد أن امتلاك السر كان شيئا يستحق الصراع من اجله واكتشفت أيضا أن الأبجدية في عصر قيصر كانت تدعى بيوبل لوث لانها كانت تبدا بالحرفين ب ، ل، وانه نتيجة لمعركة الأشجار حلت الى بيو بل لوث محل ابجدية كلتية اخرى اقدم عهدا شديدة الشبه بها ولم تقل عنها سرية وغموضا،

كانت تلعى: بيث ليوس نيون كانت حروفها الثمانية عشر تفسر باعتبارها اشارات إلى مجموعة من الأشجار البرية ، بما فيها شجر الدر واكتشفت ان هذه السلسلة من الأشجار كانت تخدم غرضا مزدوجا: باعتبارها ابجدية ، وباعتبارها تقويما مقدسا - الحروف الساكنة في كلمة الشجرة تشير الى الشهور التي تزدهر فيها تلك الأشجار وتشتهر بها ، أما الحروف المتحركة في الكلمة فتشير الى منازل الشمس او ابراجها ، والى الاعتدالين والانقلابين انه تقويم يمكن اثبات وجوده عن طريق استخدامات الأشجار في الأعياد في اوروبا كلها ، ومن الممكن ملاحظته في العصر البرونزي وربما قبل هذا منتشرا من فلسطين حتى ايرلندا ، وكان مرتبطا في كل مكان بعبارة ربة القمر الثلاثية التكوين قبل ظهور الشعوب الآرية ،التي كانت في بعض الأحيان تدعى ليوكوشيا ابي الراية البيضاء

ان ما توصل جريفز الى اكتشافه من خلال البحث وسلسلة من المصادفات، هو أن ربة القمر الثلاثية التكوين كانت رمزا عالميا في الشعر والديانات الاسطورة في العصر قبل المسيحي : الإغريقي ، والكلتي و الفينيقي والروماني والاسكندنافي والهندي ، بل والافريقي

ان اكثر الحقائق المنفردة اهمية في التاريخ المبكر للدين والاجتماع الغربيين ، كانت دون شك ، عملية الكبت التدريجية لعبادة الربة القمرية الام الملهمة ، بالاضافة الى كبتها على يدي ، او من خلال عبادة رب الشمس ابوللو المقلية المزدحمة بالعمل ، هذه العبادة التي رفضت الابجدية الموسيقية الأشجار وفضلت عليها الأبجدية الفينيقية التجارية- الفابت المألوفة - فغرست بذلك بداية الأدب والعلم الأوروبيين

كانت ربة القمر هي ربة السحر ، ربة اللاوعي ، ربة الإلهام الشعري وقد تم صبغ الديانة الاسطورية للانسانية بالصفة الشمسية، ثم حدث في الغرب أن تم تنصيرها ، او صبغها بالصبه المسيحية واعتبرت التقتل الذكر لنفسه مكانا متزايد الأهمية، مزودة على الدوام بتلك الحجة التي لا تقارع والتي تقول بأنه يمكنك أن ترى الشيء في ضوء الشمس بشكل اكثر و ضوحا مما تراه في ضوء القمر ولكن هذا ليس صحيحا على العكس ،ان اشياء بعينها تصبح غير مرئية في الضوء القوي ان الوعي الزائد عن الحد ، وحالات التفكير العقلية تشبه شبكة الصيد الواسعة الثقوب التي تهرب من خلالها كل الأسماك الصغيرة ويصف جريفز كيف تملكته الافكار والهواجس المتعلقة بالربة البيض\ ,شجرتها المقدسة ، شجرة الدر ، في عام ١٩٤٤ ، حينما كان يكتب رواية عن جاسون وركاب سفينة الأرجو كان على مكتبه في ذلك الوقت ، صندوق نحاسي صفير نقش على غطائه رسم غريب وفوق هذا الصندوق كان يضع تمثالا نحاسيا صغيرا لرجل أحدب يعزف على آلة الفلوت وبعد عشر سنوات اكتشف ان الرسم الموجود على غطاء الصندوق كان يمثل ربة القمر الثلاثية التكوين الافريقية نجام ، وان الرجل الاحدب كان الرسول الخاص لملكة ام في دوسة افريقية كانت تزعم انها من نسل نجام مباشرة واذ عاد الى ماجوركا في عام ١٩٩٩استمرت المصادفات في التراكم فقد مات جارنه كان من هواة جمع التحف فأوصى بمجموعة من الاشياء الصغيرة لجريفز ، كان من ضمنها تمثال يشبه الدمية له عين واحدة

واكتشف فيما بعد أن هذه الدمية كانت تمثالا لكاهن من كهنة اوكرافو، وهو بديل للقربان البشري الذي كان يقدم للربة البيضاء واهداه احد الاصدقاء خاتما له فص من العقيق الأحمر ، ولم يكن الصديق يعرف شيئا عن الكتاب وكان على الفص نقش لختم تبدو فيه الرموز الثلاثة الأساسية لهذه العبارة : ظبي وقمر وايكة مورقة

وحتى بعد أن انتهى الكتاب ، استمرت الأشياء الغريبة في الحدوث فقد مات أول من رفضه من الناشرين بسبب هبوط مفاجيء في القلب اصابه بعد الرفض بقليل ورفضه ناشر ثان بخطاب وقح يقول فيه انه لا يستطيع ان يعرف له رأسا من ذنب وتشكك في قدرة اي شخص ان يفهم منه شيئامعقولا ولكن هذا الناشر ارتدي بعد قليل ملابس نسائية داخلية وشنق نفسه على شجرة في حديقته ومن الجانب الآخر ، كما يقول جريفز ، فان الناشر الذي قبله - وهو الشاعر تساليوت - لم يسترد نقوده فحسب، وانما منح ايضا في ذلك العام وسام الاستحقاق على ضوء التعليقات التي أوردناها عن بويز في الفصل السابق ، قد يجد المرء لنفسه عذرا اذا هو تساءل عن مدى احب وزعيم مغامرة السفينة ارجو التي ينسب اليها وهو وزملاؤه ارجو نوقس حينما خرج مع زملاؤه - ومنهم هرقل الكبير ويوليسيز في صباه تحت راية را ميرا كبيرة ارباب الار ليمب، بحثا عن جزة لهبية يحق لمن يمتلكها أن يعتلي عرش تساليا ويخوض جاسون معارك كثيرة مع وحوش وكائنات خرافية ، تنتهي بفوزه بالجزء الثمين وبقلب وميديا الساحرة التي ستكون سببا في دماره بعد ذلك

أن مثل هذه الميتة الاكثر شيوعا مما يظن الناس وانا امتلك كتابا المانيا عن الطب الشرعي يضم عددا كبيرا من مثل تلك الصور ومن المعتاد أن يكون الموت النعلي خنقا أو شنقا دا طبيعة اشبه بالحوادث العادية ، والهدف هو الاثارة الجنسية الماسوشية وفي بعض الأحيان تستخدم ملابس الاطفال كبيرة الحجم بدلا من ملابس النساء الداخلية

ما كانت تلك الأحداث من عمل الربة ، والى أي مدى كانت نابعة من رغبة غير واعية جريفز نفسه يقول جريفز : أن سلاسل من الأحداث التي تزيد طبيعتها عن طبيعة المصادفات تحدث كثيرا في حياتي حتى انني احرم على نفسي ان ادعوها ظواهر شبحية خارقة للطبيعة ، لا بد لي ان اصفها بأنها نوع من المادة حسنا جدا : أرجعها الى المصادفة انكر انه كانت هناك أية صلة بين تمثال الأحدب القائم على الصندوق وبين نفسي ، التي اصبحت فجأة خاضعة لفكرة ربة أوروبا البيضاء ، واكتب عن توائمها القبائلية في سياق روايتك عن ركاب الارجو ، وهي التي تلقي علي الان أسرارا قديمة تنتمي إلى عبادتها في ويلز ، ايرلندا وأماكن أخرى أرجوكم ان تصدقوني : لم اكن اعرف مطلقا أن الصندوق كان لتكريم الربة نجام ، أو أن الإغريق الهيلانيين ، بما في ذلك الأثينيون الأوائل ، كانوا عنصريا مرتبطين بشعب نجام - البربر الليبيين ، المعروفين باسم الجارمانتيين ، الذين ارتحلوا جنوبا عبر الصحراء الكبرى الي النيجر في القرن الحادي عشر الميلادي ، وتزاوجوا هناك مع الزنوج

ولم أكن اعرف ان نجام نفسها كانت ربة القمر ، واشتركت في كل صفاتها مع الربة البيضاء عند الإغريق وفي اوروبا الغربية لم اكن اعرف الا ما قاله هيردوتس ، من أن الربة الإغريقية اثينا كانت هي نفس الربة الليبية نايت والتي كان احد أسمائها الأخرى هو لاميا كتاب الرية البيضاء كتاب بالغ الصعوبة ، معقد ومرهق ولكن القاريء الذي تسحره خيوطه الغريبة المشتبكة ، سرعان ما يكتشف أن جريفز لا يبالغ حينما يقول أن أسرارا قديمة أصبحت تلقي عليه كان قد وقع على نسق معرفي كامل ، يماثل في تعقيده تعقيد علم الطبيعة الحديث الذي تنتمي افتراضاته الأساسية الى القوى القمرية اكثر من انتمائها إلى القوى الشمسية وقد انجز هذا عن طريق استخدام حدسه الشعري لاقتفاء أثر مفاتيح عبر ديانات أسطورية لا صلة واضحة تربط بينها لقد اكد الشاعر راندال ياريل أن هذه الديانة الاسطورية في مجموعها ليست سوى التجسيد العقلي لعبادة جريفز لايويج ويبليش وليله الى الإسراف في تقدير النساء على حساب الرجال وهو الأمر الذي يعترف به في احدى قصائده وانه لمن الصعب أن نرى كيف يبدي المرء مثل هذا الرأي اذا كان يعرف الكتاب معرفة جيدة ، فان تماسكه الداخلي يشي بأصالته وصدقه من الحق أنه لا ينبغي أن يكون هناك صراع بين نسقي المعرفة القمري والشمسي ، لان كل معرفة لا ينبغي أن تكون الا صادقة إو زائفة وقد يقول المرء أن الصراع ينشأ من النزعة القطعية الجامدة الضيقة لطرق التفكير العلمي ويعبر أوزبنسكي عن هذه الفكرة بوضوح في الفقرة التي تلي ذلك النص الطويل الذي سبق أن اقتطفته : ولكن توجد هنا في تلك الكتب نكهة غريبة من الحقيقة وانني لاشعر بها الان بوجه خاص بقوة ، لانني حبست نفسي لمدة طويلة بداخل ذاتي ،

وسجنت نفسي داخل قيود مادية مصطنعة ، وانكرت على نفسي كل الأحلام عن الاشياء التي لا يمكن أن تقوم داخل تلك القيود لقد كنت أعيش داخل عالم مجفف ترابي متحجر ، مع عدد لا نهائي من المحرمات مفروضة على تفكيري وفجاة حطمت تلك الكتب الغريبة كل الجدران من حولي ، وجعلتني افكر واحلم بأشياء ظللت لمدة طويلة أخشى أن أفكر او ان احلم بها فجأة بدات اجد غريب المعاني من حكايات الجنيات القديمة ، أصبحت الغابات والجبال والأنهار كائنات حية ، وامتلا الليل بالحياة الغامضة ، وباهتمام جديد و تو قعات جديدة بدأت أحلم ثانية بالاسفار البعيدة ، وتذكرت الكثير من الاشياء الغريبة كنت قد سمعت بها عن الاديرة القديمة والافكار والأحاسيس التي كان قد مر وقت طويل منذ كفت عن اثارة اهتمامي ، فجأة بدأت تكتسب عندي المغزى وتثير الاهتمام وظهر من عميق المعاني ودقيق المجازات الماهرة ما كان يبدو لي بالأمس فقط خيالا شعبيا ساذجا او خرافة فجة خالية من العبرة او من المهارة من الواضح اننا قد بلغنا بهدا نقطة حاسمة في هذه المناقشة سيكون أكثر القراء راغبين في القبول بفكرة أن الإنسان يمتلك قدرات غير واعية مختفية عن الذهن الواعي فلا يدركها ولكننا نفترض الان وجود قوى خارجية ربات بيضاوات ، وابجديات سحرية وما الى ذاك ومن المؤكد أن هذه هي النقطة التي ينبغي فيها ان نقرر بحسم انه اذ لم يكن موت ناشري جريفز مجرد حادث عارض ببساطة ، الا يمكن أن يكون قد جاء بسبب التأثير غير الواعي للعين الشريرة او اللامة التي كان جريفز نفسه يمتلكها ؟ أولا يحتمل الا تكون هذه المسألة الغريبة عن الاشياء النحاسية التي كانت على مكتب الشاعر نوعا من « التواصل عن بعد أو التلباثي من جانب جريفز ، وانما كانت محاولة من جانب تلك الأشياء لجذب انتباهه اليها ؟ أليست تلك اذن هي الخطوط الفاصلة بين العلم والخرافة ؟

لقد ظن الانسان القديم أن البرق هو الرب ، وكشف بنيامين فرانكلين ان البرق كان شحنة كهربائية ، استاتيكية ، وهذه هي حقيقتها بالتحديد هذا حق ، ولكن ثمة ما هو أكثر من ذلك وهذه هي النقطة التي لا بد عندها أن يقرر مبدا جوهري آخر من السهل تماما أن نرى قدرات الانسان المنطقية قد عزلته عن قوىعقله غير الواعية انك اذا ما شرعت في حل مسألة رياضية في منتصف الليل فستجد أنه من الصعب أن تعود فتغرق في النوم ذلك أن عملية الحساب الرياضي ، تتضمن نوعا فريدا من التركيز لمستويات عقلك العليا ، وحينما نشرع في الحساب فانك توقظ هذه المستويات العليا مثلما أيقظ علاء الدين الجني المأسور في المصباح وأطلقه من اساره ولكن النوم يعتمد على عودة الجني الى سجنه في المصباح والسماح لمستويات العقل السفلي بأن تنطلق سابحة في حرية او اذا فكرت في نفسك - أعني في شخصيتك الكلية - باعتبارها شيئا شبيها بالسيارة فانك بالنوم تغير السائق

وقد كان الارتقاء الإنساني طوال المليونين الماضيين من السنين هو ارتقاء السائق الواعي ، الجني الماسور في الصباح والحضارة كيان بالغ التعقيد ويحتاج الانسان الى تنظيم عقلي بالغ التعقيد ايضا لكي يتعامل معها فاذا ما قورن الإنسان الحديث بسلفه القديم مند مليونين من الأعوام ، فانه سيبدو شبيها بشركة عملاقة تقارن بدكان صغير تديره أسرة صغيرة ومشكلة الشركة العملاقة هي أن أجهزتها العلوية المتحكمة فيها تبلغ حدا هائلا من الضخامة أن فاتورة الكهرباء التي ينبغي دفعها مقابل استهلاك مبنى ضخم من مباني الشركات الكبرى كافية لتشغيل مائة من المشروعات الصغيرة وتبلغ كل الاجهزة والمشاكل العلوية الأخرى لهذا المبنى نفس النسبة من الضخامة المروعة والنتيجة هي ان الانسان المتحضر يميل الى ان يعاني من التوتر الفائق غير الواعي فكر فيما يحدث حينما يتزوج شاب

ويشرع في تكوين اسرة ان عليه أن يفكر في مستقبله وفي عشرات الأشياء الأخرى الى جانب المستقبل ، حتى يصبح مثل لاعب السيرك الذي يلعب بعدة كرات فيحتفظ بها جميعا في الهواء في وقت واحد فاذا ما طرات له هذه الفكرة حينما يكون في شهر العسل ، فانه لن يسمح لها بأن تزعجه على العكس : انه اذ يتغذى بتيارات قوية من الطاقة التي أثارها الجنس ، فهو يشعر بأنه يمتلك من القوة ما يكفي لمواجهة تلك المشاكل وزيادة وبعد سنوات قليلة ، تأتي أوقات يستبد به فيها التعب من لعبة الكرات الطائرة ، فيتمنى لو استطاع ببساطة أن يترك الكرات جميعا لكي تسقط على الارض ولكن بما انه ـ بالطبع ـ يحب زوجته واطفاله ، فان اسقاط الكرات جميعا مسألة غير واردة على الاطلاق ولكن هنالك اوقاتا يكف فيها عن تكريس قلبه لمسألة المحافظة على الكرات الكثيرة الطائرة في الهواء ، فيترك العملية لكي تصبح عملية ميكانيكية خالصة لا روح فيها

أن ما يحدث في تلك اللحظة المثير للاهتمام تصل فواتير كثيرة في نهاية الشهر فاذا كان في حالة صحية ومتفائلة ، فانه سوف يدفع قيمة الفواتير ، وبحسب ما بقي له في البنك ، ثم يشرع في التفكير في أخذ أسرته في نزهة خلوية يوم الاحد اما اذا كانت معنوياته منخفضة ويشعر بالانقباض ، فانه يتجنب دفع قيمة الفواتير لاطول مدة ممكنة ، بسبب ما يروق له من شعور بالأمن تتواد من معرفته لان قيمة حوالة الدفع ما تزال مستقرة في البنك وتبقى الهموم في صورة المشاكل التي لا حل لها في مؤخرة عقله ، تأكل طاقته الحيوية مثلما يأكل المصباح الذي تركته مضاء طاقة الكهرباء فاذا شعر بنفسه وهو يتزايد انقباضا فان كل مشكلة جديدة تبدو له وقد أصبحت أكبر حجما ، وتزداد طاقته هبوطا انه ينزلق الأن نحو ما أسماه علماء النفس قبل خمسين عاما :

حالة الحساسية المفرطة حيث تبدو الحياة في صورة سلسلة من العقبات التي لا يمكن اجتيازها، ويصير كل كثيب صغير جبلا شاهقا هنا يصبح كل كيانه النفسي سلسلة من الحجرات التي ترك النور فيها جميعا مضاء ، وتصبح الحياة حملا ثقيلا ويعتاد بعض الناس مثل هذه الحالة من التوتر الدائم المفرط فيقبلونها باعتبارها حالتهم العادية ، فيسلمون بأنه من الطبيعي أن يفقدوا شعرهم في الخامسة والثلاثين من اعمارهم ثم يصابوا بالقرح المعوية في الاربعين لاحظ أن السمة المميزة الأساسية لهذه الحالة هي انك توقفت عن ملاحظة الأشياء انك مثل رجل يجري لكي يلحق قطارا ، فلا يعود لك من الوقت ما يكفي للالتفات براسك الى اليمين أو الى اليسار وحتى اذا ما استطعت أن تلحق بالقطار ، فانك لا تسترخي فتنظر من النافذة ، مثلما لا بد أن يفعل اي طفل عادي انما يستمر التوتر الداخلي ، انك تحاول ان تقرا جريدة ، أو ربما ببساطة تأخذ في التحديق أمامك بنظرة خالية من أي معنى ، وعقلك يضرس بأسنانه ويجرش بها على همومه فكر الآن فيما يحدث اذا ما خرج مثل هذا الشخص في اجازة ، فيبدو له كل شيء فجأة على ما يرام ها هو الصباح مشرق مشمس ، وهو يستطيع ان ينسى المكتب لمدة اسبوع او نحوه وأن يستمتع في بساطة بالمنظر الجميل يبدو الأمر حينذاك كما لو أن شخصا ما قد ضغط على زر ايقاف محرك هادر ، يخبو هدير الالة ويموت ، ويبدو الصمت شيئا كالمعجزة يبدو الأمر كما لو أن نبعا من الحيوية قد تدفق فجأة في الوعي لقد كف عن أن يكون سلبيا ومنقبضا انه ينظر الى المشهد الجميل امامه باهتمام عظيم ، او يصفي باستمتاع الى الثرثرات المحلية من مشرب الحانة لقد استرخي التوتر الداخلي

وانبسط انه لا يضيع طاقته الحيوية هباء بعد ولانه يلاحظ الأشياء الان مرة أخرى ، فان آلية تراجعه الى الوراء تبدا في العمل ان المتعة التي يحصل عليها من منظر شجرة تجري خارج القطار انما تعني ان حواسه قد بدأت في الامتداد الى الخارج ، وفي توقع ان تكون الاشياء مبهجة ومثيرة للاهتمام ، وهو الأمر الذي يعني بدوره أن ينابيع طاقته الحيوية تصبح أكثر غزارة وتدفقا ان النظر الى الأشياء باهتمام انما يعني انعاش العقل في رواية رحلة الى الشرق يكتب هيرمان هيسه جملة هامة تقول : كنت مسؤولا عن قسم الموسيقى لمجموعتنا، وقد اكتشفت حينذاك كيف يتسبب الوقت الطويل الذي نكرسة للتفاصيل الصغيرة في اشعارنا بالهيبة وفي زيادة قوتنا الفصل الأول تماما ذلك لانك حينما تركز اهتمامك بجدية على التفاصيل الصغيرة فانك تخفف من التوتر المفرط العام في بقية عقلك ، وحينذاك تكون ينابيعك الحيوية قد تجددت ويلاحظ ويليام جيمس ايضا أن التعامل بتنمر وابتئاس غالبا ما يكون افضل علاج لحالة الحساسية المفرطة حينما تصبح كل التلال الصغيرة جبالا شاهقة فالطبيب يرغم المريض على أن يبذل جهودا هائلة ، وتكون النتيجة الاولى شعورا حادا بالتعاسة والحزن ، يتبعه - على الفور تقريبا احساس بالارتياح والخلاص ولان الإفراط في الحساسية غير ضروري فهو ليس أكثر من عادة رديئة مثل خوف الطفل من الاشباح ، فانه اهدار للطاقة الحيوية لا هدف له ورغم أن الإفراط في الحساسية حالة تؤكدها وتبرزها الحضارة الحديثة ، فانها ليست مرضا خاصا من أمراض الحضارة انها مرض من أمراض الوعي - أي انها مرض يتبع أن يكون الكائن انسانا ان عامل المزرعة اذ يذهب الى عمله الجديد بأن يتجاهل الاشياء المحيطة به مثلما يتجاهلها

ولا يشعر بها البائع المتجول المتعجل في سيارته واذا كان سكان قرية من قرى الامازون اقرب الى الطبيعة من سكان نيويورك ، فعادة ما يكون ثمن هذا هو القذارة والجهل وعدم اشباع الاحتياجات الضرورية ان الإفراط في الحساسية هو الثمن الذي ندفعه مقابل سيمفونيات بيتهو فن وروايات بلزاك ، وما تحقق من تقدم في المعرفة الطبية التي في الأطفال من الموت بالجدري ومع هذا فانه ليس ثمنا ضروريا او لا مهرب منه انه نتيجة للجهل بمصادر اقتصادنا الحيوي وسوء ادارتها والنقطة التي تجدر ملاحظتها هنا هي انه على الرغم من أن الإفراط في الحساسية قد لا يكون ضروريا ، فانه منتشر كما تنتشر الإصابة بنزلة البرد العادية ولن يكون من قبيل تجاوز الدقة ان نقول ان كل الناس يعيشون في حالة ما من حالات التوتر والقلق أكثر جدا من المستوى الذي يحتاجونه بالعقل من اجل الوصول الى الكفاءة الحيوية الفعالة فان من الميول العامة السائدة للوعي ان لا يفرد الانتباه حتى يجعل سمكه بالغ الرقة ، ومثلما يحدث لطفل تجاوزت استثارته حدها لكثرة ما يجده امامه من الدم في عيد الميلاد ، لا بد أن تكون النتيجة هي الإجهاد العصبي والأمر المثير للاهتمام حقا في هذا السياق هو اللحظات التي يسترخي فيها التوتر ، بسبب نوع من الايحاء الذاتي او الانغماس الكامل في بعض المهام الصغيرة ويصف ييتس مثل هذه اللحظات ، اذ يجلس في مشرب مزدحم للشاي في لندن بينما رحت احدق في المشرب والشارع فجأة التهب جسدي وتوهج والتمع، ولمدة عشرين دقيقة او اكثر او اقل ، بدت سعادتي هائلة عظيمة ، حتى اصبحت مباركا، قادرا أن أمنح البركات ربما كانت هذه حالة من حالات الايحاء الذاتي ، يستطيع المرء أن يتخيل الشاعر اذ يزداد توتره

واجهاده بينما يشق طريقه وسط الزحام في وسط لندن - ثم يجلس ليحتسي قدحا من الشاي الساخن بينما ينظر من نافذة محل سولن وادجار الى الشارع فجأة تتوقف كل محركاته وتصمت في سكون ، ويمضي في التحديق الى الحشود المتزاحمة العابرة باهتمام عميق هذا هو في الحقيقة ما يكون شاعرا من الشعراء انه شخص يتمتع - بشكل طبيعى - بصحة جيدة ومرونة فائقة ، وكثيرا ما تمر به لحظات تختفي فيها الحساسية المفرطة المعتادة ، وفجأة تفرقه الدهشة والبهجة اذ يتبين مقدار ما يثيره كل شيء من اهتمام ومتعة أن ما يحدث في مثل تلك اللحظات هو أنه يبدا في سماع أصوات الصمت انه يدرك أن العالم ثري بالمعاني التي كان جديرا بالا يلتفت اليها لو كان في حالته العادية وانا اركز على كلمة المعاني لانها لب الموضوع وجوهره ان المعاني التي ندركها حينما تختفي حالتنا المعتادة من الأفراط في الحساسية ، موجودة بالفعل انها ليست وهما ، أنها ليست شيئا نابعا من ذواتنا بصورة مطلقة

و من الحق أن لكلمة مثير للاهتمام دائرة ذاتية ، انني أنا الذي اقرر ماهو مثير للاهتمام وما ليس كذلك ومع ذلك فان له معني موضوعيا خاصا به فحينما يدرس شرلوك هولمز وثائق قضية من القضايا ثم يغمغم بقوله انها تثير الاهتمام للغاية يا واطسون فان من الممكن أن يعبر عن المعنى الذي يقصده بقوله : انها اكثر تعقيدا مما يظهر على السطح أن الإحساس بالمعنى الذي يبزغ في داخلنا حينما تختفي حالة الافراط في الحساسية هو نوع من التعرف على التعقيد ، نوع من الأهمية الكامنة في الأشياءاننا اذا ما فكرنا في الارتقاء الانساني باعتباره عملية من التعقدالمتزايد واذا استخدمنا تعبير تيار دي شاردان

اصبح من الواضح أن هذا الارتقاء يعني ايضا افراطا في الحساسية متزايدا ، وأن هذا بدوره يعني ميلا متزايدا لعدم ابصار المعنى ومن المهم أن نفهم أن المعاني التي بدا أوزبينسكي يراها في الغابات والانهار والجبال لم تكن مسألة خيال أو استسلاما لنزعة عاطفية وكان ما وصل اليه جريفز من معرفة قمرية حقيقة فعلية ، حقيقة يدركها الشعراء في لحظات الصمت والسكون وفي الاسطورة الكاتية التي تحكي قصة جويون التي رواها واقتطفها جريفز ، يستخدم الصبي جويون في تحريض مرجل يحتوي على تميمة معرفة سحرية ، وتتطاير من المرجل ثلاث شرارات فتحرق اصبعه وحينما يدس اصبعه في فمه ، يرى فجاة معنى كل شيء ، في الماضي والحاضر والمستقبل وفي أسطورة سيجفريد ، مثلما رواها فاجنر بالموسيقى ، تسقط قطرات من دم التنين على يد البطل فتلسعها ، ويدس سيجفريد يده في فمه فيصبح قادرا من فوره على فهم اغاني الطيور وغمغمات الغابة وفي الحالتين تتمتع التميمة السحرية بنفس التأثير غرس نوع من الصمت الداخلي العميق الذي يسمح بخلق نوع جديد من ادراك المعنى

فاذا اتفقنا على أن عروس الشعر أو الساحر هو شخص يستطيع عقله أن يسترخي فيدرك تلك المستويات الأكثر عمقا من المعاني ، فلا بد لنا من الاعتراف بان هذا يتضمن مسألة ذات طريقين ، أن المعني موجود هناك حقا ، خارجي بالنسبة لعقله ، وقدرته على انتسال كالنغم نحوه ليست سوى البداية بل أن نقطة أكثر اهمية واثارة للاهتمام تبرز هنا لقد قارنت الانسان بسيارة لها سائقان : الشخصية الواعية ، والدوافع الخفية غير الواعية عند الانسان المتحضر ،

يكون دور السائق غير الواعي آليا الى حد ما وميالا وقائما على التكرار بالمقارنة مع دور السائق الواعي ، انه يزيد قليلا عن مهندس مراقبة وصيانة يسيطر على النوم والذاكرة و وظائف المعدة والأمعاء أما العقل الواعي فانه هو الذي يكتب السيمفونيات ، ويخطط لغزو الفضاء ويبني الحضارة ولكن في المجتمعات السحرية في الماضي السحيق ، كان السائق غير الواعي يتمتع بنفس هذه الدرجة من الأهمية حينما كان يتولى القيادة ، لم يكن ذلك تجرد دفع المرء إلى النوم ، وانما كان هدفه هو توسيع ذلك النوع الاخر من المعرفة ، المعرفة الحدسية للمعاني التي تحيط به مثل غمغمات الغابة لقد استهدف الساحر والصوفي أن يغوصا بشكل ما الى ابعاد اكثر عمقا في داخل الطبيعة ، وأن يهدا قبضة العقل غير الواعي وان يزيدا من قوته لم يكن النوم حالة سلبية يفيق فيها الجسد من اجهاد اليوم السابق ، وانما أداة من أدوات البحث والاستقصاء ، بل كان أحيانا مقدمة تمهيدية أساسية للسحر ففي ايرلندا القديمة ، كانت عملية اختيار ملك جديد تتضمن التضحية بشخص مقدس ، يقف على رأسه كاهن من الدرويدئين يتمتم حتى يغرفه النوم وفي اثناء النوم ، تنشد فوقه الاناشيد حتى يهبط عليه الوحي لينبئه بأحق المطالبين بالعرش بان يكون ملكا بالنسبة للعقل الحديث ، يوحي مثل هذا الاحتفال على الفور بان هناك خدعة تهدف الى الاحتيال على المتوحشين السذج ولكن هناك حالات تم تسجيلها عن سحر النوم تقل عن الحالة المذكورة سهولة في التفسير في كتاب انواع من الجزر يتحدث آرثر جريمبل ، الذي كان، مشرفا على مشاكل الأرض في جزر جيلبرت جنوبي المحيط الهاديء ، فيصف الاحتفال السحري المخصص للنداء علي الدلافين من البحر لتسهيل اصطيادها

وكان جريمبل قد قيل له أن يأكل لحم الدلافين لكي يزيد جرمه وقاده هذا إلى التساؤل : عن الكيفية التي يستطيع بها أن يخرج بحصيلة منتظمة من هذا اللحم النادر وجاءه الجواب المفيد من احد ابناء الجزيرة يقول ان اقارب هذا الرجل نفسه في قرية كوما ، على بعد سبعة عشر ميلا من الاهوار المتصلة بالبحر : هم الذين توارثوا مهنة النداء على الدلافين عن الرؤساء الكبار لقبيلتي بوتارياتري وماكين مينج وكان ابن عمه المباشر من الخبراء البارزين في هذه العملية ، وانه يستطيع أن يدفع نفسه الى ان يحلم الحلم الصحيح المطلوب حسبما يريد وقد خرجت زوجه من جسمه في احد هذه الأحلام: وذهبت الروح فبحثت عن قطيع الدلافين في مأواها تحت سطح البحر عند الأفق الغربي فوجهت اليها الدعوة الى الرقص ، في العيد ، في قرية كوما فاذا هو نطق كلمات الدعاية بطريقة صحيحة وقليلون هم من يعرفون سر هذه الكلمات فان الدلافين تتبعه وهي تطلق صيحات الفرح الى سطح البحرو في الموعد المحدد ، اخذ جريمبل إلى قرية كوما، حيث كانت كل الأطباق اللازمة للعيد قد اعدت ونظمت اما منادي الدلافين الودود السمين ، فقد اعتزل في كوخه ، وطوال عدة ساعات اطبق الصمت على الجميع ثم اندفع منادى الدلافين خارجا من كوخه وسقط منبطحا على وجهه ، ثم نهض واقفا : منوحا بيديه في الهواء وهو يشب في مكانه ، وحنجرته تفح بصوت مرتفع غريب كصوت الجرو الصغير ثم خرجت الكلمات متحشرجة من فمه قائلا : تيبريك تيبريك انهضوا انهضوا لقد جاؤوا ، لقد جاؤوا واندفع القرويون جميعا الى مياه البحر ووقفوا وقد وصلت المياه إلى الصدور ثم جاءت الدلافين : كانت الدلافين تتحرك نحونا على شكل طابور منتظم طويل، تفصل بين كل واحد منها والذي يليه مسافة ياردتين او ثلاث

، على امتداد ما كان بوسع عيني ان تبصر جاءت في بطء شديد ، وقد بدا عليها انها غارقة في تهويمة من النعاس وكان قائدها يطفو بصعوبة كمن يسير في حلمه اثناء النوم واقترب الحالم من القائد دون كلمة لكي يسير بجانبه نحو المياه الضحلة وكان القرويون يرحبون بضيوفهم ويقودونهم الى الشاطيء بكلمات مدندنة وبينما كنا نقترب من الشاطيء الضحل الزمردي اللون بدات زعانف الحيوانات تلمس الرمال ، فضربت بذيولها برقة كما لو كانت تسأل العون وانحنى الرجال ليطوقوا أجسادها الشبيهة بالبراميل الضخمة بأذرعتهم ولكي يضعوها برفق على حافة الشاطيء كان يبدو عليها وكأن رغبتها الوحيدة هي ان تبلغ الشاطيء وبعد ذلك ، ذبحت الدلافين المنومة مغناطيسيا وتم اكلها وقد يكون من الواجب أن نذكر - بشكل عابر - ان الحيوانات يسهل تنويمها مغناطيسيا ويقدم بلاك وصفا لهذا في كتابه العقل والجسد ويضيف ان هذه الظاهرة قد وصفت في بعض الكتابات القديمة التي يرجع عهدها إلى عام ١٩١١، حينما لاحظ تشيوينترا انه اذا ما راس دجاجة على الأرض ثم رسم خط بالطباشير يمتد من امام منقارها ، فان الطائر سيظل مثبتا في مكانه حتى يفزعه صوت مرتفع أن أولئك الذين توارثوا النداء على الدلافين عن اجدادهم في جزر جيلبرت نموذج على تطور المعرفة القمرية ، والقصة في مجموعها تؤكد نقطة حيوية لقد اعتدنا على التفكير في النوم باعتباره حالة لاسيطرة لنا ، ولا يمكن أن تسيطر عليها ، نفقد فيها كل قوى الفعل والتفكير التي نمتلكها بشكل طبيعي ومعظم احلامنا تنسي عند اليقظة ولكن ج و دان ابرز في كتابه الشهير تجربة مع الزمن عام ١٩٢٧،

اننا نستطيع بقدر معين من الجهد ان تتعلم تذكر الأحلام وقد درب نفسه على أن يفعل هذا عن طريق الاحتفاظ بقلم وورقة الى جانب الفراش لكي يسجل الأحلام في كل مرة يستيقظ فيها من النوم اثناء الليل وكانت النتيجة هي اكتشافه ان الاحلام كثيرا ما تحتوي على لمحات من المعرفة المسبقة لأحداث سوف تقع فيما بعد وسوف نناقش هذا في الفصل الثالث من القسم الثالث من هذا الكتاب آن سحر المنادين على الدلافين هو خطوة ابعد في هذا الاتجاء . مثلما كان الأمر مع الكهنة الدرويديين وهذا ايضا هو ما يفسر الأهمية التي كانت القبائل البدائية تعزوها إلى الأحلام ، وهو ما يفسر السبب الذي جعل ربات القمر حاميات الديانات السحرية وقد يكون هذا الضبا هو السبب الذي جعل عباد الربة البيضاء ينظرون اليها باعتبارها ربة مدمرة بالإضافة الى انها ربة ملهمة ان العقاقير ذات التأثير النفسي ، التي تؤدي الى اخماد نشاطه العقل المنطقي ووضع القدرات غير الواعية السفلية في مقعد قيادة الشخصية ، هذه العقاقير تستطيع أن تولد انواعا من الرؤى للجمال او للرعب أن العقل الذي يفتح نفسه للمعاني السفلية غير الواعية يكون قد هدم تحصيناته ، وطوح بعيدا بعزلته ، ونزع كل ما يشبه اجهزة امتصاص الصدمات التي تحميه ان الوعي اليقظ بالنهار يستطيع اللجوء الى الآراء والأحكام الشائعة السائدة والمتعارف عليها ، يستطيع اللجوء الى الحقيقة الموضوعية ولكن في حالات انطلاق القوى السفلية غير الواعية ، يقيم الخط الفاصل بين الحقيقة وبين خيالات المرء الشخصية ، ودون قدر معين من المعرفة و من الانضباط او النظام ، يصبح العقل تحت رحمة ميله الخاص الى الهلاك ويعلق جريفز على هذا تعليقا صائبا بقوله ان الكابوس او الحلم المرعب هو واحد من اكثر جوانب الربة البيضاء قوة

ولا بد لنا ان نحدد هذا الجانب - رغم أن جريفز قد لا يتفق معنا - بالقول بان الخطر هنا انما ينبع من جهل عبادها المخلصين وليس من اي ميل الى التدمير عند الربة نفسها : وهناك سؤال هام آخر ينبع من قصة جريمبل عن النداء على الدلافين : ان التعليق الذي يقول فيه: فاذا هو نطق كلمات الدعوة بطريقة صحيحة وقليلون هم من يعرفون سر هذه الكلمات ، فان الدلافين تتبعه فاذا كانت قادرة الذات السفلية للحالم هي التي تستطيع بشكل ما أن تنوم الدلافين مغناطيسيا فلماذا ينبغي وجود شكل محدد للكلمات ؟ ومن الواضح أن هذا السؤال انما يحتوي على كل مجال الطقوس والاناشيد السحرية ويكاد الجواب أن يكون يقينيا : أن هذه المسألة لا تهم الا الساحر ، الذي ينبغي ان يؤمن بالصحة الموضوعية لما يفعله ومشكلتنا هي اننا نحتوي على عقلين ، وقد بلغ من اعتياد العقل الواعي على دوره الذكري القائم على السيطرة انه كثيرا ما يتدخل في عملياته اللاوعي الانثوي الرقيقة يقول فيزيال وهو شاعر اخر يتمتع بعقل لاواع نشط الى درجة غير عادية ، اذ يصف في ترجمته لنفسه كيف اشتغل في مكتب لارسال البرقيات فتعلم كيف يرسل اشارات مورس باستخدام مفتاح كنت شديد القلق ، فأخذت ارسل البرقيات بطريقة مهوشة خاطئة لا يمكن قراءتها أما الارسال بطريقة صحيحة فكان شيئا مبهجا فبدلا من

ايلام العضلات ، كان هناك احساس باللعب الحر في ادارة المفتاح ، تعاون مرن خال من المجهود مع الجهاز الآلي الدائم الارتداد وذات يوم ، وبينما كنت امارس عملي بدا معصمي في التحرك بهذه الحرية المبهجة كان رئيس الوردية ينظر الي بدهشة ورضا من مكتبه وكان ان القيت نظرة سريعة الى نظارتيه اللامعتين الليئتين بتعبير عن الرضا ، وعلى الفوراختفت هذه القدرة ، او الموهبة - ايا ما كانت - ثم لم تعد ابدا له

ان الطريقة الهوشة التي اتبعها فيزياك في البداية هي الأفراط في الحساسية الذي كنا نناقشه منذ قليل ، أنه العقل الواعي الدائب على التدخل ومقاطعة نشاط الانسان الآلي غير الواعي الذي يتعامل مع تلك المسائل والاشياء الالية اذن ، فان من الممكن أن يدرب العقل غير الواعي على الاستجابة لتركيبة معينة او لمجموع من الرموز ليس على عاشق موسيقى فاجنر الا ان يسمع وقدرا ر واحدا من لكي يحس بشعره يخز كالشوك ويقف أما القديس الهندي راما كريشنا فيمكن أن يغيب في حالة من النشوة , السامادهي بسماع اسم الام المقدسة وفي قصيدة الارض الخراب يستخدم ت س اليوت عن عمد مقتطفات اصبحت ذات شحنة عالية من المعنى في سياق آخر مختلف ، بما في ذلك مقتطفات من النصوص الشعرية لأوبرات فاجنر ويقول جريفز أنه ليس سوى الشعر الذي تلهمه عرائس الفنون حقا هو ما يستطيع ان يولد هذا الإحساس بوقوف الشعر الذي يعظن هوسمان انه محك الشعر الجيد، ومن الواضح انه على صواب بمعنى عام ، ولكن البوابات السحرية يمكن أن تدفع الى ان تستجيب لأي افتح يا سمسم ، اذا تكلف المرء مشقة نطقها لقدشهر المراهقون في الخمسينات بشعرهم يقف ، هذا الشعور المشهود له بالصدق ، حينما كانوا يرون صور جيمس دين وان نغمة معينة لتبلغ مستوى القمة بين اغاني البوب بان يتم عزفها المرة بعد المرة حتى تستثير استجابة شعائرية وقد استطاع هتلر بعد تجربة طويلة أنdبدرب مستمعيه ونظارته الى الدرجة التي اصبح من الممكن فيها لارتفاع بسيط معين في نغمة صوته

الفهرس